

لفظ الشاطىء الايطالي المحزون جثة الشاعر الانكليز شللي بعد غرقه فقد كان يتنزه في البحر مع صديق له ، وهبت عاصفة جائحة حطمت الزورق الحالم ، وتنفيذا لوصية الشاعر أحرقت جثته ، وأحالتها النار الى رماد ، ولكن ـ لدهشة الجميع ـ لم تستطع النيران أن تأكل القلب ، وازداد عجب الناس عندما وجدوا أن القلب بحجم قلبين ، ودفنوا القلب بكل تجلة ، ونقشوا على حجارة القبر باللغة اللاتينية : « قلب القلوب » .

وقلب كل فنان اذا لم يكن بحجم قلب شلي ، فمما لاشك فيه أن قلبه كبير بما تضطرب فيه من مشاعر السمو والنبل ، وما تتقد فيه من حرارةالحب، وسعير الألم ، وكبيرجدا بما يحمل الى الناس من أفراح ، وقد يكون هو متلظيا في جحيم ، ففي أعماقه تكمن المأساة ، ويترسب الالم ، ولكنه يغتصب على شفتيه الكئيبتين ابتسامة حزينة ليعي الناس الحب والحنان والامل ، وأحيانا كثيرة المرح ، فقد كان مدلير أكبر كاتب ملهاة أنجبته فرنسا في جميع عصورها الادبية ، وكان يضحك الناس ، في تأليفه وتمثيله ونفسه تتلظى في سعير من الشقاء الدامي ، والالم الهاصر ، ولفظ أنفاسه على المسرح . كان يمثل احدى مسرحياته ، وتفجرت الضحكات معربدة سعيدة ، وهو وراء الكواليس يبصق دما ، تتساقط أنفاسه ، وحمل الى منزله حيث قضى نحبه ، ورنات الضحكات السعيدة التي كان يطلقها النظارة تلاحقه وتبهجه لانه أخلص لفنه حتى لحظاته الاخيرة ..

وهل يبغي الفنان الا سعادة جمهوره ؟

وقلب الفنان مثال العطاء السمح ، فهو يبذل كل شيء للآخرين ، ولايأخذ منهم شيئا ، وسعادته تنحصر في انعكاس عطائه على جمهوره ، فاذا أحبه وفهمه ، تعاورته البهجة ، وانطلق يبدع ويجود فنه ، فكلمة اطراء تهزه ، وعبارة ثناء تلهبه ، فيعكف على الحرف ليصوغ منه الكلمات الرائعة تعبر عما يكنه للحياة من حب أو كراهية ، وليس له من هدف سوى التعبير عما يلعجه من عواطف جائشة ليجد فيها الناس عواطفهم ومثلهم ، وبكلمةواحدةيحرق نفسه ليستمتع الآخرون.

ان أروع صورة عن قلب الفنان تلك التي اخترعها الفرد دي موسة فقد مثل قلب الشاعر بالطائر البحري « مالك الحزين » الذي رجع الى عشه الجاثم على صخرة ممردة في البحر ، وهرع اليه أفراخه يزقون ، وقد استبد بهم الجوع ، وفراه الألم .. لقد جاب البحر ، ولكنه لم يوفق الى صيد سمكة ، فالسماء مظلمة ، والعاصفة عاوية ، والأمواج هائجة .. وفراخه في سغب شديد ، وهو في لغب أشد .. وأخيرا يضرب صدره بجنون في الصخرة الناتئة ، وتنبثق منه الدماء ، وتلعقها فراخه ، ويأكلون لحمه الذي يتساقط في أفواههم ، وهو يرنو اليهم قرير العين حتى لفظ أنفاسه سعيداً لأنه عصم فراخه من الجوع . وهكذا الشاعر يقدم قلبه قربانا للناس ، وهو سعيد ، فقلب الفنان ينبوع زاخر بالحنانوالحب، ولايعرف سوى التضحية لاسعاد الآخرين .

وقلب الفنان بريء من كل دنس ، طاهر كندى الغمام ، لايعرف الحقد اليه سبيلا •• انه نقي أبيض مثل قلب الطفل لايعرف الغش ولا الرياء ، يتلألأ نقاوة وصفاء •• وقالوا عن روسو انه طفل كبير ، وهذا الوصف ينطبق على جميع الفنانين ، فمن المستحيل أن تجد فنانا بعيدا عن الطفولة والبراءة ، والانسياق مع الفطرة الصافية ، فقلب الفنان ، أشد بياضاً من الثلج يفيض منه أرج •• أين منه أرج الزهر •

* * *

ان الحب غذاء قلب الفنان ، فمنه يستقي الهامه ويعب ولا يرتوي ، وكلما ازداد ارتواء برح به الظمأ ، فالحب هو الشعلة التي تضيء جنبات هذا القلب الكبير : حب الجمال والخير ، والحق ، والفقراء ، والبائسين ، ففي هذا القلب تمرح أطياف الحب بكل ماتنبض من اشراق ، ومن هذا الحب تفيض أروع الأنغام الفنية التي تتجلى آيات تتهادى بالروعة لتكون الزاد للانسانية في رحلتها الى عالم الجمال والخير والحب ، فتولستوي أحب الفلاحين ، ووزع عليهم أملاكه الواسعة ، بيد أنهم رفضوها ، وهجر الثراء الذي آل اليه بالميراث ، وأراد أن يعكف على صناعة الاحذية ليعيش •• وليوناردي فنسي أحب مونا ليزادي الجيكندا حبا مبرحا صامتا التهم روحه ، وكانت ثمرة هذا الحب أروع آية فنية عرفتها الانسانية ، صورة الجيكندا بابتسامتها العجيبة التي أضحت أسطورة في روعتها وفتنتها ، ولقد مكث أربع سنوات في رسمها يسكب في الألوان قصة قلبه الكبير •

وأكثر من هذا ، فقلب الفنان يخترق حدود الزمن ، ويحيا مع عوالم لاترى يناجيها وتناغيه فالشاعر جبريال دانتزيو أعظم شاعر أنجبته ايطاليا في العصر الحديث ، وكان موسوليني يطلق له كل يوم مدفعين في الصباح ، وفي المساء تحية لعبقريته •• كما ان فاتنات أوسباكن يتهافتن عليه •• بيد انه هزأ بهن ، وخفق قلبه •• ولكن لمن ، للجيكوندا التي أبدعها ليوناردو فنسي وهام بها حبا ، وكتب مسرحيته الرائعة الجيكوندا تمثيلا لهذا الحب القدسي الذي أحسه ، وملك عليه شغاف قلبه •

* * *

وقلب الفنان دوما غرض لسهام كيوبيد ، فسرعان ما تخترقه هذه السهام ، ويستجيب لندائها رغم انه يسكب عليه العذاب ، ويذيقه الحرمان ، ومن المستحيل أن يشيخ هذا القلب ، فمهما امتد به العمر يظل في مراهقة متصلة تفتك به العيون النجل ، وتصميه الجفون الناعسة ، وترديه ابتسامة جميلة تطوف على ثغر رائع ، فجوتي أحب صبية ، وهو في الثمانين من عمره ، وكتب رائعته « الأنساب المختارة » تنفيسا عن هذا الحب ، وتوماس هاردي كتب أجمل قصائد الحب بعد السبعين من عمره وتزوج الفتاة التي ألهمته هذه الخوالب ، فقلب الفنان لايشيخ ، بل يظل نابضا بأقوى المشاعر الجائشة ، وهذا شوقي الذي أبدع مسرحيته العظيمة مجنون ليلى ، وهو في الستين من عمره ، وغنى فيها أروع شعر الحب الذي عبر عن أسمى المشاعر وأرقها وأنبلها •

* * *

ويتعذب قلب الفنان ، بيد أن هذا العذاب نعمة على فنه يستمد منه أروع آثاره ، فالشاعر الايطالي بترارك أحب لورا — وهي أميرة — حبا صامتا عفيفا، وغنى لها أروع أغاريد الحب ، ولما علم به أخوها الأمير زجه في غياهب السجن ، ولامرتين كان يتنزه في بحيرة ، وعرف هناك مدام شارل زوجة عالم طبيعي، وكانت تعاني فتكات السل ، ولم يمض قليل على هذا الحب حتى اخترمت المنية محبوبته ، ومزقت المأساة قلب الشاعر ، وغنى أروع شعر عاطفي عبر فيه عن هذا العذاب الذي هد قواه ..

* * *

وقلب الفنان عجيب في حبه ، فلكل قلب قصته الحية الخاصة به ، فبيرون الذي كانت نساء اوربا تتهافت عليه لم يجش أقليمه بحب محتدم الا لاخته من أبيه أو غستا التي أنجبت منه « ادا » ومن هنا تأتى تشاؤمه واحساسه بالألم ، ونظم تشيلد هارولد الذي زرع الألم الاسود في أوربا ، وفي الحرب الاخيرة صدر كتاب زعم فيه مؤلفه ان المسئول الاول عن الحرب هو بيرون لان اعصاب أوربا توترت بعد قراءة شعره ، واضحت توثر لأتفه شيء . وهذا دانتي .. الذي رأى بياتريس مرتين في حياته .. وكانت في الثامنة من عمرها ، غير ان هاتين النظرتين ظلتا الوقود الذي الهب قريحته حتى ابدع الكوميديا الالهية .. ولقد تزوج وأنجب ، ونفي من فلورنسا ، نند في ايطاليا هائما في كل مكان ، ومع هذا ظلت تلك الطفلة مستراد خاطره ومهوى فؤاده ، ويقص علينا حديث هذا الحب في كتابه « الحياة الثانية » او قلبه يحترق في ذكراه الآسية .

ولن يستطيع قلب الفنان الافلات من الحب ، فهو له بالمرصاد ليتاح له الابداع ، وهذا نيتشه فيلسوف القوة نراه في ايطاليا فريسة لحب فتاة ايطالية « لوسالومي » وحاول أن ينأى عن هذا الحب ، ولكنه وجد نفسه ذات يوم يذهب اليها ، ويترامى على قدميها لتقبل به زوجا .. وعاد حسيرا ذليلا وفتكت به آلام لاحد لها عندما علم أنها ترامت على الموسيقار الخالد فاجنر ..

وقلب الفنان عجيب في نبضاته ، غريب في تصرفاته، فجيوتي أحب شارلوت التي كانت خطيبة أحد أصدقائه وخاب في حبه ، وكانت — فرتر — ثمرة هذه الخيبة التي هزت العالم ببؤسها ، والالم الكامن في كل كلمة فيها .. ومع هذا بعد سنوات مسح الزمن هذه الجراح، ودخلت عليه شارلوت نفسها عندما كان مستشارا لامير ويمار ، ترجوه أن يعين ابنها في وظيفة . وكانت المقابلة فاترة ممجوجة ، وقال لاحد أصدقائه : لو لم تعلن عن اسمها لما عرفتها . وهكذا تبدد هذا الحب الملتهب كأنه لم يكن ..

وقد يتمرغ قلب الفنان بالاثم ، وتجد فيه مجالا لعبقريته ، وينبوعا خضلا يستقي منه الهامه ، فشارل بودلير عاف زهرات بايس اليانعات لينجذب الى فتاة خلاسيه ، امتهنت الاثم ، وانفق عليها ماله ، وثارت به أسرته ، ولكن زهرة الشر هذه ظلت مسيطرة على أعصابه ينغم لها أروع شعره .

أما قلوب الشعراء العذريين العرب ، فهي مثال السمو والرفعة والعظمة الروحية ، فقد حنت عليهم البادية الطاهرة ، وظللتهم سماؤها الصافية ، وتربوا في ظل الاسلام ، فسما بنفوسهم وصقل ارواحهم ، حتى أضحوا نمطا فريدا بهذه القلوب التي تخفق بالحب السامي والالم الداوي والمشاعر النبيلة .

« محمد حاج حسين »

المدى الضيق (قصة)

للكاتبة الايطالية : ريجينا انيزيني

تعريب : عيسى الناعوري

منذ ايام كانت جارتنا تدق جرس الباب بعنف . وكانت مضطربة وهي تقول : « ان حالة الآنسة ليلى سيئة جدا . انكم تعرفونها دون شك ، فهي التي تقيم في الطابق الثالث . فهل لديكم بعض الفاليريانا لانعاشها ؟ »

وتذهب شقيقتي ايلين لتحضر الفاليريانا من المطبخ، فتجدها هناك على المائدة . لقد تناولت بعضها امس بعد احد المشاهد المألوفة مع ابني .

ونسأل معا : « ولكن ماذا اصابها ؟ نوبة قلبية ؟ »

ــ انها تبدو مجنونة ، ولا شك ان في الامر نفسا تتمزق تمزقا شديدا .

وننزل نحن الثلاثة .

على مهبط الدرج زاوية من السماء تبدو من النافذة المفتوحة على الضباب .

ان ما اعرفه عن ليلى م . قليل جدا ، ولكنه يطيب لي الان ان افكر انها ، وهي امرأة في الخمسين من عمرها ، لم تتزوج بعد . وهي بالتأكيد من تلك الكائنات التي لا تستطيع ان تحمل لها ضغينة ، والتي تعرف ــ إما متأخرة جدا وإما مبكرة جدا ــ أنها لا تلقي أي اهتمام خاص من الآخرين ، على الرغم من المزايا العديدة التي تتميز بها ، ولكنها لم تكن مثار أي فضول او اهتمام من احد ــ وهل يمكن ان يكون غير ذلك ؟ ــ ولكن لننظر اليها : انها ترتدي الملاءة دائما ، وفي الصباح حين ألتقي بها على السلم وانا خارجة الى عملي ، أرى الملاءة تتهدل على وجهها ، وفي المساء تكون منزوعة تماما عن شعرها ، وكأنها هناك بقوة سحرية ، وهي بذلك الشكل التنكري المفجع تبدو كالجنية . ولكن من الغريب ان يحمل ذلك الجسم المتين ، الذي ابرز ما فيه الساقان النحيلتان ، صوتا حلوا كأصوات المراهقين : فيه عذوبة وشيء من الخشونة . ان فيها لغزا محيرا .

وتسليتها الوحيدة لقتل الوقت هي تغيير اماكن الاثاث ، ففي بيتها المكون من غرفتين وردهة صغيرة لا بد من شيء يغير مكانه دائما . ولدى ليلى كنبة اصيلة ثمينة ، فاذا ما حدث مرة ان دار حديث بينها وبين احد امام باب بيتها دعته بلطف الى رؤية تلك الكنبة ، ولم تنته من التذمر من ان المدافيء قد أثرت فيها ، وانه الآن قد بدأ يتسرب اليها السوس واذا ما استمرت الحال هكذا مع دخان المدفأة الاسود ، فمن الافضل ان يعود المرء الى اساليب الحياة القديمة، فلم يعد يكفيها تنظيف الزجاج مرة واحدة في الاسبوع .

وتظل ليلى تنظف وتنظف دون انقطاع • ثم تجلل المائدة بغطاء ناصع ، وتضع في وسطها الازهار وتمضي تخرج وتدخل باستمرار بين الغرفة والمطبخ والحمام ، ثم الى المطبخ من جديد ، وهكذا دائما كما لو كانت زائراء وتتوقف الساعة عند ذلك الوقت • ولكن شقيق ليلى مولع بالروليت ، وفي ايام الاعياد يذهب الى سان ريمو ومونتيكارلو ، ومنذ مدة قصيرة صار يعود الى المنزل مرة في الشهر او اقل » • « انه لا يخجل من اللعب بعد ان دمر اسيتنا » • هكذا تقول اخته • وكان من العدل ـ بل اكثر من العدل ـ ان تعمد ليلى في احد الايام الى نشر اعلان في الصحف بحثا عن رفيق لها : « امرأة شابة ، ذات مسحة من جمال ، لا تخرج الى المدينة الا مرتين في الاسبوع في امسيتين متواليتين ، وأما الزواج فيتم بعد سنة »• وتقول ليلى: « ولكنني ما كنت استطيع الزواج دون هذا ، فلم يكن في بلدتي من يفهمني لانني اختلف عن الآخرين• هل تفهمين ؟ • وماذا كان في وسعي ان افعل ؟ انتظره، ام ابحث عنه ؟ ولكنني بحثت عنه ، ولقيت عددا ممن يريدونني » •

« العشاق ؟ » وننظر اليها دهشات وهي بثوبها البيتي الذي تتخلله ازهار كبيرة تطوقها من الساقين فما فوق الصدر الذي يكاد يكون عاريا تماما • وتحاول ان تغطي صدرها وتقول : « ذلك النذل ! » ثم تنحني على الصناديق المقلوبة ، وتقذف في الهواء ببعض الغلافات واحدا اثر واحد ، وتتبعها بعض الرسائل ، فتسقط كلها من حولها ، وتقول بين الزفرات العميقة : « ذلك الحقير ! لقد قتلني ! » ووجهها يعبر عن احتقار شديد كأنما يسقط من جبينها الى اسفل حتى يصل الى شفتيها • ويبدو القلق يسيطر عليها بقوة اشد من قوتها ، وعندئذ تأخذ في البكاء كأننا لسنا معها ولا وجود لنا • ولا يدري بعضنا الى اين ينظر لكي يشعرها بعدم حضوره ، وبعضنا يوجهن اليها اسئلة • وتقول ايلين اخيرا : « هل تريدين ان تشربي الفاليريانا ؟ » •

كلا ، لا اريد شيئا ••• لا ، اريد ان أنام لقد قضيت ثلاث ليال دون نوم ، ولن اعرف النوم حتى يقبض عليه رجال الامن ، ذلك المجرم الحقير !

ـ ومن هو المجرم ؟

ـ كيف تسألين من هو ؟ خطيبي ! ••

ـ آه !

ثم يسود الصمت •• الخطيب ! !

ما ابشع ان يخفق المرء في حبه !

ونروح ننظر في وجوه بعضنا البعض ، بينما تمضي ليلى في حديثها : « كان يجب أن اختار الآخر ••• ولكن من ترى كان يمكن أن يظن هذا ؟ لقد كنت احبه وكان يحبني ••»

منذ اسبوعين كانت ليلى المسكينة تتساءل : أي الثلاثة الذين استجابوا لاعلانها تصغي الى طلبه ؟ ثم اختارت حالا ذلك الرجل الذي اوحى اليها بشيء لا ادري ما هو . كذلك قالت للبوابة ، ولابنة الخباز . ثم راحت تتقلد حلاها دون ابطاء . وبعد بضعة ايام كانت تصعد معه السلم الى منزلها منتصبة القامة ، وهي تستند الى ذراعه . نعم ، مع (ز . ز) وهو تاجر خمور ، كان يدعي ايضا انه يحمل دبلوما في المحاسبة . كان يبدو انسانا جادا رصينا ، فهو لا يضحك ابدا . كذلك قال لليلى . وكانت هي تقول : « انني احس معه بارتياح ، وسنتزوج قريبا » .

★ ★ ★

لم يكن يهم ليلى ما تراه من شرود ذهنه الذي كان يجعله ينسى قبعته هناك على الكنبة دائما ، وكأنما تقول لها القبعة : « انني اليوم ههنا ، وغدا هبة ريح .. » ولكنها تعلقها على الشجاب وهي تتلذذ بتذكر كلماته اذ يقول لها : « لماذا لم اعرفك يا حبيبتي منذ عشر سنوات ؟ لقد كنت دائما وحيدا هكذا . ولكن ان يصل المرء متأخرا خير من ان لا يصل ابدا .. وفي الاسبوع التالي ، كلا ، كفى.. لن نؤجل الزواج الى ابعد من هذا : سنمضي الى والدي الموجودين في فلورنسا » ... تتذكر ليلى في غيابه هذه الكلمات وتنسى القهوة على فرن الغاز ، وتحرق مطاط الزينة ، فتعبق رائحة لا يمكن ان يطيقها أحد غير ليلى التي لا تشعر بها . وتطلي وجهها بطلاء روبنشتاين ، وتذهب الى المزين كل يوم ، وتمضي تتزين كل يوم . ويتهامس الجميع : كيف تحافظ الآنسة على زينتها ؟ انها ما تزال تعتبر امرأة جميلة حتى في هذه السن !

★ ★ ★

انها الآن على السرير ، ولكنها تختلف كل الاختلاف عن حالتها العادية . وقد استطاع بعضهم اخيرا ان يرغمها على تناول مسكن ، ولكنها لا تني تردد : « ثمانمئة الف ... جميع نقودي ! انه ليس تاجرا كما يزعم ، وليس له اسم في سجل التجار ، بل هو نصاب غادر اثيم . هل تفهمون ؟ محتال ... لقد قالوا لي ذلك حالا ، ووضعوا امامي على المائدة الف صورة . لقد رأيتها جميعا ولم تكن صورته بينها ، ذلك المسخ لم يكن هناك ! .. »

ـ قد يكون متزوجا ولم يشأ أن يصرح لك بذلك !

ـ كلا ، انه غير متزوج . انه لا شيء ، أتفهمون ؟ لا وجود له ! .. نقودي ، حياتي ، سعادتي ، كلها لم يعد لها وجود ! ..

ـ ما يدريك انه قد يعود ؟

ـ لا تضطربي هكذا يا آنسة ، اننا نريد ان نساعدك .

وتنظر ليلى اليهم جميعا نظرة قانطة وتقول : « ولكن كيف صدقت حكاية والديه ؟ انه ابن !.. »

كان في الغرفة عشرة اشخاص ، ولكن جميع سكان العمارة الكبيرة كانوا يستمعون ، كما يفعلون حين ينفجر احد انابيب الماء ، أو حين يتعطل المصعد. وكان الجميع يشيرون بما يجب على ليلى أن تفعله ، ولكن ليلى تبدو كالمجنونة ، وتنظر اليهم حانقة ، وتمضي في هياجهاتقوم وتقعد على السرير ، وتبكي.

وبلغ بها الأمر ان راحت تنتف شعرها ، وقد رأيت خصلة منه على الارض كأنها من شعر انسان ميت .

ويقول احدهم : « سترين انه سيعود اليك »

ورحت انظر في وجه كل واحد منهم فرأيت انهم لا يعتبرونها معتوهة ، بل كانت في نظر الجميع عانسا غبية ، واذا كانوا يشعرون نحوها بالرثاء فرثاؤهم هو لغبائها فحسب . ان من يؤمن في الدنيا بالاوهام يقع عند الناس موقع الرثاء والاشفاق . وهم الآن اذ يرثون لحالها انما يجهزون عليها بالطعنة الاخيرة .

★ ★ ★

ومضى الصوت عينه يقول: « تجلدي، تجلدي!» وفي الوقت عينه كان الجميع يخشون ان تقذف بنفسها من الطابق الثالث او من الشرفة ، ويفكرون في انها لو فعلت فسيكون هذا امرا مؤسفا . ولكن ليلى تحدث الجميع وخيبت ظنهم . وفي المطبخ ألقت على المائدة كومة من الاوراق . ومن يدري كم مرة كررت امامه تلك اللعبة ، وأي مصير مزدوج كانت تقرأ في تلك الاوراق ايام كان يقدم لها الازهار ! اما الان فهي ليست سوى مجموعة احساسات قاسية هامدة . ان مصيبتها الان هناك على المائدة ، وقد نظرت اليها لحظة كأنما تريد ان تستوثق من كل شيء .

لم يكن خوفها قضية شهوة على الاطلاق وانما كان قضية مدى : فمساحة الشرفة امامها لا تزيد على متر واحد مربع ، بينما الآخرون لهم العالم الرحيب المترامي الى الجهة الاخرى : النساء الاخريات لهن مدى الحياة الفسيح ، أما هي فمداها من الدنيا ضيق كشرفة منزلها، وهذا كله يتجلى في هذه النظرة: النظرة المعتوهة . وعلى السرير كان في تنفسها شيء غير بشري ، شيء اسود لا يطاق ، ويستدر الرثاء الذي لا حد له . ولعل بعضهم يقول مشفقا : « يا لها من عانس بليدة ! » وكان مما يثير اشمئزاز الجميع ان تكون هذه المرأة غريبة هكذا ، وقد فات اوانها .

ولكن ها هو الجمهور يتنفس . حتى الان لم يأت دفانون ولا حمالات موتى . ان عيني ليلى ممتلئتان بنعاس ثقيل .

وكما يحدث دائما حينما يريحنا احد من ثقله ينتهي المرء بان يدمدم متذمرا منه او من الآخرين ، أو ان لا يقول شيئا ، بل يكتفي بالنظر وهز الرأس ، ثم يتركه وينصرف .

عيسى الناعوري



تعب الانام على انتهابك مطلبا   فهووا كلاكل واستبيحوا منكبا
ما ان أفاقوا في الدنى حتى ارتموا   متهافتين على بريقك وثّبا
فكأن عهدا بين لمعك خاطفا   وعيونهم مذ شب ربي كوكبا
اني لألمحهم ركوعا سجدا   يستعطفونك أن تلوح فتخلبا
تعيي أكفهم المعاول شرعا   ويلفهم رهج الغبار مغيبا
متلمسين الى بريقك منفدا   متجاوزين الى لقائك مسربا
يعدو اللهاث بهم الى جرف الردى   فيكاد يهمي روحهم متصببا
لما أضأت على ظلام عيونهم   دارت عيونهم عليك تعجبا
فتناهبوك مشذبين فمن يد   صقلت ، وأخرى نمنمتك مذوبا
فصخبت في زند الحسان اساورا   وصدحت خلخالا على ساق الظبا
وسلست عقدا زان عنقا بضة   مهما تثاقل حولها لن تتعبا
وعلقت بالآذان قرطا ناعما   يهتز ما اهتزت أفانين الصبا
والتف منك على الاصابع خاتم   يسبي الغزالة نورها المتلهبا
قد يسعد الجنسين ما ضاءت له   درر وقد يشقيهما اما خبا
وأتحت للهرم العجوز صبية   يلهو بها مستمتعا مستعذبا
لاتنظرن اليه بل ترنو الى   صنم من الذهب المصفى ركبا
فكأن حاجبه شريط مذهب   يحنو على جفن يرف مذهبا
وضربت دينارا فجن بك الحجا   ولو استشرت حلفت الا تضربا
ما قطعة منقوشة مرسومة   أفرى على الاكباد من حد الظبى

ما طبعها تقف العديم ليكتوي   وتريث المحروم كي يتلهبا

ما لونها واللؤم صفرة لونها   ما وزنها ترقى البنان لتهربا

من سكها سك الأنام بجلهه   صنفين : ملآنا وآخر مجدبا

يتفانيان على امتلاك عنانها   وتظل تضحك وهي تنتظر النبا

أدم على الدينار كل حياتنا   ما أحقر الدينار ألا يخضبا

الصخر يادينار أن يرشف دما   تخجل شمائله فيمرع معشبا

ولكم خضبت على الدهور بأحمر   قان ، وما فارقت لونا أصهبا

أودعت قلبك في القصور مفاتنا   وبسطت في الاكواخ طيفك مرعبا

موجت في القصر الخصور رواقصا   لتذوق منك الراقصات الاطيبا

والمطربات المنشدات ، غناؤها   لولا رنينك ، ما أرن وطربا

ونأيت عن كوخ فأسفر حقده   عن فيلسوف جاد أو لص سبا

سارا معا يستنهضان الى دم   كسلى الحياة فأين سارا خضبا

قلم اذا لباه صدر حاقد   عمرا ، وان ضلا سبيلا خربا

فلرب مقدام تحمل وحده   عبء اقتحامته شجاعا أغلبا

ضاعت سريرته وأظلم فكره   فكبا ، وقد يقضي الجواد اذا كبا

الثورة المعطاء ان هي اخصبت   زهت الدنى وجرى الزمان محببا

تعطي ، ولا يرضى القليل عطاؤها   فكأنها غيث يصيب التوربا

تزكو رجالا لا يبل ضميرهم   ذهب يهل على الضمائر صيبا

ذهب تعلق بالضمير بريقه   منذ القديم يريده أن يجذبا

قلَّ الذين عصوه في اغرائه   فارتد عنهم ذاهلا مستغربا

رأس الخراساني لما غطيت   بسنا الدنانير انمحت متطلبا

غضبت لهامته الجيوش فأمطرت   ذهبا ، فآلت بعد الا تغضبا

سحر عجيب ، لا يعاصي أمره   الا الهداة ، وكل فذ مجتبى

رفع الرضي ، وما حبا لبريقه   زلفى ، وغرَّ المرتضى لما حبا

وارتد عن زهد المعري حانقا   اذ لم يصادف منه قلبا قلَّبا

سحر عجيب ، قد تجلى كيده   فيمن ترضَّى كيده وبمن أبى

لو أن رنته توقع نغمة   لسرت على الأوتار لحنا مطربا
لو ان بسمته تمر بمبسم   لم تبق وجها في الوجود مقطبا
وترنم الشعراء في أوصافه   فاذا الأصيل يلوح ظلا مذهبا
والشعر كالذهب المدلى شقرة   والوجه دينار تهلل معربا
وأخاف أن يعدى النسيم بوصفه   فيقال تبر هب ، لا هبت صبا

★ ★ ★

ما أنت ، يا ملك المعادن ، من ترى   اعلاك شأنا أو سما بك منصبا
قد كنت في جوف الثرى هزء الثرى   وأزيح عنك ، فصرت غطرسة الربى
شلت يد الحفار فيما استحوذت   قد ساء قصدا في جناه واذنبا
ألقى على الراحات قطعة معدن   فكأنما ألقى عليها عقربا
دبت على روح البرية فارتوت   سما ، فساءت في الموارد مشربا
حقد تألّق في النفوس فلم يدع   للبشر نجما ، والهناءة كوكبا
شردت به الاخلاق عمياء الخطى   تتلمس الصدر النبيل الارحبا
ياضيعة الأخلاق ، أين عيونها   فمهانة لعيونها أن تعصبا
هذا النهار اذا تجاهل شمسه   هل تصبر الآفاق حتى يكذبا
لهب الحياة لكل عاف مصطل   كل حواليه بجلسته احتبى
عد للحقيقة ، يا معمي وهجها   لاتستدر حول الحقيقة لولبا
فالبحر لا تطويه راحة سابح   والطود لايرديه سهم صوبا
ورأيت دينارا تلوذ بظله   مدن حواها ضيقه واستوعبا
عبدته ناطحة السحاب فنكست   هاما ، وخافته المصارف هيبا
أعطى عبيد المال من احسانه   سيفا ، ومن حسنى يديه مخلبا
فعدوا الى نهب البسيطة هيما   حشوا لها جوا ، وبثوا مركبا
السوط ينشدهم أغانيه على   ظهر العراة ، فيسمعون المطربا
عصروا البسيطة كي تزيد كنوزهم   يتناحرون لجمع مال مستبى
لا الحرب تلو الحرب تردعهم الى   أن قيل « ان السيل قد بلغ الزبى »

وتجمعت في راحة راح الورى ... لتشير لفوا او تدوقوا المعطبا

فكرامة الانسان لم تسلم له ... يوما فأهلا بالحمام ومرحبا

★ ★ ★

ياتبر ، ياعز النفوس وذلها ... يامؤنسا طورا ، وطورا مرعبا

يا رافعا حال الوضيع ، وخافضا ... قدر الرفيع ، تغيرا وتقلبا

يا صاقلا للسافلين طباعهم ... فيحلقون دماثة وتأدبا

يا واهب الموت العجول هدوءه ... أما تلافيت العليل مطيبا

ومباغت السمح الكريم بغدرة ... يهوي لها اسيان حتى يندبا

أقصر ، فغدرك لن يطول بقاؤه ... فغدا سيهملك الوجود منكبا

فيغيب مجدك حين تصبح مفردا ... لا واهبا تلقى ولا مستوهبا

يلهو بك الاطفال فسحة يومهم ... وتمجك الغادات حليا انسبا

الناس ، والحاجات ـ ملك بنانهم ... عافوك مطلوبا ، وجلوا مطلبا

فتبيت تسجدي المعادن لفتة ... وتلح أن تطويك فيها موكبا

ويلفك اليأس المرير فتشتهي ... أن تسترد الى التراب فتحجبا

محمد حريري



حول تجربة كافكا

تنويع
* صدقي اسماعيل

يحتل فرانز كافكا Franz Kafka مكانة بارزة في تاريخ الفكر الفلسفي المعاصر ، على الرغم من انه كان فنانا مبدعا في انتاجه الادبي اكثر منه فيلسوفا . غير ان الارتباط العميق بين تجربته في الحياة واعماله الادبية جعل منه واحدا من رواد الفكر النوابغ الذين عاشوا في حرارة وصدق ، كل ما تركوا من آثار . في حياة هؤلاء تكون شخصية الكاتب وحدها محورا أساسيا للتجربة الفكرية . وقد كتبت دراسات كثيرة عن انتاج كافكا ، وكانت جميعا تتناول دوره الهام في التعبير عن التجربة الوجودية التي صدرت عنها اقوى التيارات الجديدة في الفلسفة المعاصرة . غير انه لم يكتب الا القليل عن الجوانب الذاتية في هذه التجربة ، وقيمتها في البيئة الثقافية التي تحمل طابع المجتمع الحديث . ان كثيرا من الدعائم الرئيسية التي استند اليها كافكا ، تبدو مزعزعة أمام النظرة الاجتماعية . بل انه يمكن ان يعتبر ظاهرة سلبية تنطوي على القلق والريبة اكثر مما تمثل الموقف الفلسفي الحاسم .

* * *

بهذه النظرة نشر الكاتب الاشتراكي المعاصر باڤل ايسنر Pavel Eisner دراسة جديدة تحمل عنوان « تحليل كافكا » ، أراد بها ان يلقي ضوءا على بعض النواحي التي ينبغي أن تفهم من خلال هذه التجربة الوجودية ، لكي تكون في نظر الباحثين والمريدين ــ ولا سيما الشباب منهم ــ أكثر وضوحا ، واشد ارتباطا بمعناها الانساني . يقول الكاتب :

ــ خلال الحرب العالمية الثانية وفي السنوات التي تلتها ، عرفت البلاد الغربية موجة غامرة من الاهتمام بكافكا . وذكر صديقه ماكس برود Mex Brod ان احد معارفه في أمريكا التقى عن طريق الصدفة ، بأربعة كتاب ، كان كل منهم يعد دراسة عن كافكا . وقد كتبت عنه كومة من المؤلفات والدراسات ، وكلها تبرز معالم تجربته الفذة وأدبه المبتكر . ولكن كافكا لم يفسر على حقيقته ، ولذلك وضعت كل هذه الكتب جانبا ، ورأيت أن شخصيته وحدها هي نقطة البداية .

ولد كافكا في براغ عام ١٨٨٣ ، وكان أبوه من تجار النسيج . وبعد أن انهى دراسته الثانوية ، درس الالمانية ، ثم الحقوق . وفي عام ١٩٠٦ وضع اطروحته لشهادة الدكتوراه ، ثم بدأ كتابته الادبية ، واشتغل موظفا في بعض شركات التأمين . وفي السابعة

والعشرين من عمره اعلن خطوبته ثم فسخها ونزح الى الدانمارك . وبعد ذلك بثلاثة أعوام ظهرت عليه أعراض السل ، وعاد الى خطيبته من جديد ثم فسخ الخطوبة مرة ثانيـة ، وتنقل في أماكن متعددة من أجل صحته ، ولكنـه بقي مريضا ، وفي عام ١٩٢٣ تعرف بامـرأة كانت تشرف على تمريضه ، وارتبط معها بصداقة متينة ، وعاشا فترة في برلين ، وفي السنة نفسها لجأ الى مصح قرب ڤيينا ، وفيه لفظ أنفاسه الاخيرة ولم يتجاوز الاربعين .

★ ★ ★

هذه هي حياته الموجزة مضافا اليها انه كتب عدة روايات وقصص معظمها لم ينشر الا بعد وفاتـه . فما هي الملامح الحقيقية لتجربته ؟

نقلت احدى حفيدات فلوبير انها صحبته مـرة لزيارة صديقة لها ، لديها كثير من الاطفال . فقـال الكاتب الكبير ـ وقد وجد نفسه محاطا بضوضـاء الصغار : « انهم الحقيقة » . وكان كافكا يردد هذه الكلمة . وقد ذكر ماكس برود ان كافكا كان يتحدث عن الاطفال على هذا النحو ، حين يكون فريسـة الانفعال . انها كلمة السر في كل تجربته وآثاره . ان رواياته الثـلاث : « الدعـوى » ، « القصـر » ، « أمريكا » ، هي تصويـر صارخ لتجربة العزلة . انسان أصبح على يقين من انه مرفوض ، ولم يعـد قادرا على استعادة شيء .

★ ★ ★

ففي رواية « الدعوى » يتهم البطل ـ وهـو موظف عادي ـ بجريمة لا يعرف عنها شيئا ويقبض عليه بصورة غير مفهومة، ويحاكم أمام قضاة لايراهم، ثم يـدان ويقتل في ظـروف غامضة . ان كلمـة « الدعوى » لا تعني القضية ولا المحاكمة ـ كما يبدو في الظاهر ـ بل انها تشير الى اتهام أساسـي، يحمل الادانـة منذ البداية . لقد تحدث كافكا في يومياته عن شيء يشبـه المرض العضال في وجـود الانسان ينبغي ان يحاسب من أجله ، وقد لا نستطيع التعبير عنه ، ولكننا نحياه في ألم عميق ، انه الانزواء عن العالم : ان يشعر الانسان بان جميع الروابط قد قطعت بينه وبين الآخرين وانه اصبح شيئا جافا على السطح . لقد ورث كافكا هذا الشعور عن خيبتـه العاطفيـة ، كان يرى انه في طريق ضالة لانه لـم يستطع الارتباط بأي انسان ، أو بتعبير آخر لم يحب أي كائن بشري . هذا هو الاتهام حين ترجمت الرواية الى التشيكية حملت اسـم « الدعوى الرئيسية » ويمكن ان نستبدلها بعنوان اكثر دلالة على تجربـة كافكا هو « العـذاب الرئيسي » . كتب كافكا في يومياته : « لو انني أراكم مرة واحدة ايها القضاة !» .. كان يشعر بأنه لا يعطى فرصة للدفاع عن نفسه، وانه لو اتيح له ذلك لاعترف بانه مجرم ، ولكن يجب ان يفهم جريمته . كان كافكا متأثرا بقصة صغـيرة للكاتب الروسي تولستوي ، هي : موت ايڤان ايليتش IVAN ILLICH . في هذه القصة يوجز تولستوي حياة قاض ، في صفحات قليلة ، عمر حافل بالسنوات والايام ، ولكن لا معنى له . لقد مات ايڤان ايليتش وهو يتعذب لانه لم يشعر مرة بأية عاطفة صادقة .

★ ★ ★

وفي رواية القصر ، يعود كافكا الى التجربـة نفسها ، يدعى البطل ـ وهو مهندس نشيط ـ الى القصر في احدى القرى ، ولكنه لم يجد من يتصـل به ، كانت له مهمة ، ولكن مشكلته اصبحت فـي

دخول القصر . وقد اغلقت امامـه جميع الابواب . انها لعنة العزلـة أيضا . كتب كافكا في يومياتـه : « شيء من الرعب القاتم ، أن تجهل الطريق . » . كان يريد الآخرين . ولكن الناجع في حياته انه لم يستطع ان يتصل بهم الا من خلال الحساب : كيف يمكن ان يجد منفذا الى الداخل ، حيث الآخرون ، ولكن هؤلاء أنفسهم ما يزالون مجهولين . ولا ريب انهم يشبهونه لانهم من البشر ، فلماذا يتوارون خـلف الجدران .

ان كافكا لم يكن قادرا على حب الانسان . ومن أجل هذا أخفى جميع الوجوه البشرية . انه سجين العزلة التي فرضها على نفسه . العزلة التي يشعـر بها كل شخص يحاول ان يتفرد بمصيره ، وينشيء علاقته بالعالم على الحسابـات المعقولة التي تمـده في كل خطوة بالمبررات .. مع ان التعاطف الانساني فوق جميع المبررات ..

في الرواية الثالثة « امريكا » يعـود كافكا الى طفولته . فبطل القصة فتى في السادسة عشرة مـن عمره ، يرسله ذووه الى امريكا اثر فضيحة عائلية . لقد اغوته خادمة المنزل . وفي أمريكا ــ العالم الجديد ــ يحاول ان يعيش كما يفعل الجميع ، ان يطمئـن الى الحياة ، ولكنه يفشل . فاللعنة تلاحقه ابدا . كان يرى الحياة صاخبة من حوله ، مفعمـة بالمسرات ، محمومة بالضوضاء ، وكان باستطاعته ان يندمـج فيها ويتبين معناها الحق ، ولكنه كان ملطخا بالعار . هذا هو شعوره العميق ، ومبعث شقائه . ان عـالم كافكا هو عالم مهدد ابدا ، لانـه ــ اي كافكا ــ مهموم بنفسه . كتب في يومياته : « على هذه الارض حيث تنصب الشباك في كل مكان .. » وكتب ايضا : « ليس ما هو اسهل من ان نجد الهـدف ، ولكن الطريق ضائعة ابدا . اننـا لا نملك في طريقنـا الا التردد والخوف » .

على هذا النحو يمكن ان تفسـر تجربة كافكا كلها بمحاولة الفرار . لقد كان يائسا من العـالم ، لانه كان فريسة للشعور بالاضطهاد امام العالم . وعلى الرغـم من الآفـاق التي ارتادهـا حسه الفلسفي ، والبصيرة الواعية التي وقف بها أمام مشكلة الوجود الانساني ، على الرغم من هذا كله ، فقد كان عاجزا عن فهم الحياة في نبضاتها الحارة . ان الحياة الانسانية هي جميع الآخرين ، هي المشاركة الصادقة في الآلام والمسرات ، فما من أحد يستطيع ان يجتاز الطريـق وحيـدا ، لان الطريق قد وجدت من أجـل المـارة جميعا .

وليس من التبسيط الساذج ان تفهم هذه التجربة الوجـودية على هـذه الصورة ، فما دام الانسـان هو نقطة البداية في هذه التجربـة ينبغي ان يكون نهاية المطاف أيضا . قال كافكا في يومياته :

« كل انسان يستطيع ان يضيع ، دون أن يأمل بالعودة الى السلام ، ولكن ما من أحد يعتبر قادرا على فهم ضياعه ، ومن ثم فان الهم هو في طبيعتنـا جميعـا .. »

ولنـا أن نرد على هذه العبارة اليائسة : « ان الضياع يصبح مأساة حقة ، حين نفتقد اليقين ، فما لا يُفهم هو موضـع الريبة والشـك ، أما الشيء « الحقيقي » فانه لا يحتاج الى التبرير ولا يحتمل الكثير من التفسيرات الحائرة . انه يفهـم في حرارة لمجرد اننا نحياه » .



•• مضى علي مذ تركت الجيش ، حوالي العام ونصف العام ، وما زلت الى الآن اذكر ، وبكثير من الحنين ، بعضا من الذكريات الحلوة التي كنت اعيشها فيه بكل كياني • ولقد باتت هذه الذكريات بالنسبة لي ، تاريخا مجيدا ، وماضيا مقدسا ، أشعر بالفخر والحماس لما اذكره وأتمثل ما كان لي فيه • واذا ما استطاع مرور الزمن يوما ما أن ينسيني كل حياتي الماضية في الجيش ، فاني على يقين من أنه لن يستطيع محو هذه الذكرى التي تتمثل لمخيلتي الآن فتملأني بالفرح والحبور ، شأنها في كل مرة استعدتها فيها •

•• كنت رئيس مخفر صغير للحراسة ، في مستودع للذخيرة يقع في مكان ناء من سفح جبل اجرد ، أقضي أيامي بملل ورتابة • في الصباح أتفقد الجنود والحوادث الطارئة ، وأوزع الخدمة ليوم جديد ، ثم أدرب الجنود ببعض التمارين ، وأصرفهم قبيل موعد توزيع الطعام بقليل •

•• كانت على مقربة منا بضع قرى صغيرة ، كنا نشتري منها ما نحتاج اليه من طعام او حاجيات أخرى • وكان ثمة حانوت طلبت من جنودي ابتياع حاجياتهم منه ، لان صاحبته امرأة فقيرة ، تعاملنا برقة ، كما لو أننا أبناؤها •

سألتني مرة ، وكنت ابتاع منها بعض السكر والشاي :

ـ حضرة الرقيب ، ما بتعرف ابني محمود وين ؟

وسألتها عن ابنها محمود هذا ، ومن يكون ، فقالت :

ـ يا تقبرني •• ما بتعرفو ؟ راح للجيش من شهرين !

وأجبتها بالنفي ، لانه لم يسبق لي أن عرفته ، فأنا قد مضى علي في هذه المفرزة اكثر من ستة اشهر لم أغادرها خلالها • ولمحت في عينيها آثار دموع حاولت ان تتدحرج على وجنتيها المجعدتين ، ولكنها حبستها وهي تقول برنة أسى :

يا عيوني عليه •• صار لو شهرين ما بعتلي مكتوب !

•• كان معي « سليمان » احد جنودي الذي بدا عليه أنه قد تأثر من لهجتها الملتاعة تلك ، فقال لها بعد ان تطلع الي بنظرة لم أفهمها منه في البدء :

ـ ابنك محمود ، أنا اعرفه يا خالتي •• كنت واياه في سرية واحدة منذ شهر ، وكان سريره بجانب سريري •

•• تطلعت اليه العجوز الكليلة بشغف ، وكأني بالحياة قد ردت اليها فجأة ، أوكان ابنها محمود قد عاد اليها وارتمى بين ذراعيها يشبع يديها تقبيلا • فأقبلت عليه وقالت له وهي تمسك بيديه :

ـ محمود •• ولدي •• كيف حاله ؟ وقال لها :

ـ اطمئني يا خالتي ، انه في أحسن حال ، كان دائما يغني لنا ميجانا وعتابا ، وهو مبسوط جدا في الجيش •

وسألته بلهفة :

ـ وليش ما بعتلي مكتوب ؟ فقال لها سليمان على الفور :

ـ كتب المكاتيب ممنوع يا خالتي قبل ان يمضي عليه ثلاثة اشهر ، وبكره بعدشهر ، سيصلك منه مكتوب ان شاء الله •

•• امتلأ قلب العجوز بالفرح والحبور ، فقالت لسليمان وهي تمعن في وجهه النظر :

ـ وكيف حالو بالجيش ، لساتو بيحلق شواربو ؟ ولست اعرف من اين أتت لسليمان هذا ، كل تلك القريحة آنذاك حتى قال لها :

ـ ربى شوارب مثل شوارب عنتر ، اكبر من شوارب رقيبنا • وأشار الي •

ارتسمت على وجهها ابتسامة حلوة زادت من تغضن بشرتها ، وضيقت حدقتي عينيها قليلا ، ثم تقدمت مني ومدت يدها المعروقة تتحسس بها شاربي الأسود الكثيف !

•• كنت أتنصت لحديثهما معجبا ومذهولا في نفس الوقت • فسليمان الخبيث هذا ، لم يسبق له أن عرف محمودا ! ولكني بعد ان رأيت ابتهاجها لسماعها أخبار ابنها ، سررت أنا الآخر منه ، وتمنيت لو أنه يستمر في رواية هذه الاكاذيب ، ليدخل المسرة الى قلبها • تناول سليمان بعد هذا لفافة راح يشعلها بعود ثقاب ، وبعد ما عب منها نفسا طويلا ، قال لها ونحن نتهيأ للخروج :

ـ لا تخافي على محمود يا خالتي ، غدا سيأتيك منه مكتوب ان شاء الله • والآن خاطرك • وردت عليه بحنان :

ـ مع السلامة يا ابني ، الله يحفظكم لأهلكم سالمين •

•• خرجت واياه من الحانوت وأنا أرمقه بنظرة اعجاب ، ثم ما لبثت ان قلت له مؤنبا :

ـ أليس عيبا أن تكذب عليها ! رد باشفاق :

ـ ألم تر كم كانت متشوقة لسماع أخبار ابنها ؟ انها تظن ان الجيش كله يعرف بعضه ، وأنه لا بد من أن نعرف ابنها • لقد مزقت قلبي بنظراتها الذليلة اليك وهي تسألك عنه • ولقد قلت لها ما قلت كي أطمئنها ، ولا ضير من ذلك ، فهو عمل انساني ، وليس كذبا ما قلت •• فجميعنا اخوان نعرف بعضنا، وكلنا ابنها محمود • وان كنت لا اعرف محمودا ابنها بالضبط ، فاني أعرف كثيرين غيره ، وكلنا أبناء لها ولغيرها من الامهات ! قلت له وقد أعجبني منطقه:

ـ على كل حال •• انك تخدعها ، ولكن حذار من أن تكتشف أن ما قلته لها غير صحيح ، فتؤلمها ، ولا تذكر أشياء كثيرة عنه حتى لا تخطيء في وصفه• تطلع الي ضاحكا وقال :

ـ امرك يا حضرة الرقيب العطوف •• لن أكذب عليها كثيرا ، لاني بت احبها والله العظيم !

* * *

•• بعد تلك الحادثة الغريبة ، أصبح « سليمان » زبون « أم محمود » المدلل • فأسعار مبيعه دائما أخفض من غيره ، والاصناف التي يأخذها أجود مما يأخذها رفاقه ! بل انها باتت تغسل له بعض ثيابه دون مقابل ، وتدعوه للغداء عندها في الدكان • والادهى من ذلك أنها حملت اليه مرة سلة من البيض أهدتها له ، ولم يستطع رفضها • فبقينا نأكل منها عدة ايام !

•• كان سليمان يعود من عندها ضاحكا مسرورا يقص علينا ما رواه لها عن ابنها محمود ، وعن بطولته في الجيش ، وعما قالته له وأكرمته به ، معتقدة تمام الاعتقاد انها تكرم بتكريمه ابنها محمود ذاته ؟ قلت له مرة :

ـ سليمان ، الى متى ستظل تخدعها ؟ اني اريدك أن توضح لها الامر بصورة ما ، وتفهمها أنك لم تعرف ابنها ، وأن محمودا الذي تحدثها عنه ، هو غير ابنها • فقال مستفهما :

ـ ولماذا •• لقد قلت لك أني لا اخدعها ، وأنها خدمة انسانية اقوم بها ليس الا ، وما الضير في أن تعتقد أني كنت زميلا لابنها ، ما دامت تسر لذلك ! أنا لا أرى أي ضير ، ولا استطيع أن أسميها خدعة •

•• لست أعرف كيف كان ذلك الخبيث يقنعني دائما ، حتى يجبرني على السكوت •

وبلغ الامر « بأم محمود » أنها باتت تحبنا جميعا اكراما لسليمان الذي يعرف ابنها ، والذي أخبرها بأن ولدها قد ربى شاربه في الجيش ! ولهذا فقد باتت تبيعنا السكر والشاي بأقل مما كانت تبيعه لغيرنا ؟ بل لقد سألتني مرة عندما كنت عندها في الحانوت مع بعض الرفاق :

ـ تقبروني •• اطبخلكم برغل ؟•• صار لكم زمان ما أكلتو من طبخ البيت !

قلت لها وأنا أمعن النظر في وجه سليمان الذي كان يقتعد كرسيا بجانبها وهو يرشف كأسا من الشاي :

ـ كتر الله خيرك يا خالتي •• انهم يطبخون لنا البرغل وكل شيء في الجيش ، فلا تتعبي نفسك •

وعادت تنظر الى سليمان ، وتسأله المزيد عن دقائق حياة ابنها في الجيش، وأخذ هو بسرد الاكاذيب التي لم تكن تنتهي ، ولا ينس ان يستشهد بشاربي كلما حدثها عن شارب ابنها • ثم أخذ يسرد النكات ، حتى جعلها تضحك من أعماق قلبها •

* * *

•• مرت بعد ذلك أيام طويلة ، لم أستطع النزول فيها الى القرية ، وتشاغلت عن أم محمود بتدريب مجموعة جديدة من الجنود أتت المفرزة حديثا • أما سليمان ، فقد استمر في النزول من بعد ظهر كل يوم• وكنت أسأله عندما يعود عنها وعن أخبارها وعن محمود، وعن آخر طعام طبخته خصيصا له• واخبرني مرة ان الامر بلغ به حدا أنه كتب لمحمود رسالة على لسانها ، جوابا لرسالة جاءتها منه ؟ وأنها سرت منه أكثر وأكثر ، فقد اصبح وسيط اتصال حقيقي بينها وبين ابنها ؟

•• وذات يوم ـ وما زلت أذكر ذلك اليوم جيدا ـ جاءني سليمان والدم ينزف من أنفه ، ومعه زميلين له قد أمسكا بجندي غريب عن مفرزتنا • وتساءلت ما الامر ، فاذا بالعسكري الغريب عنا ، يتقدم نحوي لاهثا ويده مرفوعة الى جانب رأسه :

ـ احترامي يا حضرة الرقيب ، جئت أشتكي اليك من هذا اللص الذي خدع أمي • لقد جئت

اليوم في اجازة وذهبت لعند أمي في الدكان ، واذا به عندها تسلق له بيضا . وبعد أن قبلت يديها وقبلتني، قالت لي :

ـ ألا تسلم على رفيقك سليمان ؟ وأين شواربك التي ربيتها ؟ .. استغربت الامر ، فسألتها من هو سليمان ، ومن قال لك أني ربيت شواربي ؟ فأجابتني بأنه رفيقي الذي كنت واياه في سرية واحدة ، ودلتني عليه فتاه عقلي ، وأدركت على الفور أن هذا الحقير انما يخدع أمي ويقول لها أنه يعرفني ليستغفلها ، فملأني الغضب ولكمته بقبضتي ، لكمة واحدة فقط ، ثم أمسك الجنود بي وأحضروني اليك .

.. كنت أستمع اليه وأنا غير مصدق أني أرى محمودا حقيقة أمامي ، ثم لم أستطع بعد ما سمعت منه ما سمعت أن أكتم ضحكة عريضة ارتسمت على محياي ، وقهقهة صاخبة انطلقت من فمي . أجلست محمود بجانبي وقلت له وأنا اربت على كتفه :

ـ لقد أخطأت يا محمود بلكمك له ، انه لم يخدع أمك ، بل كان يقوم بخدمة انسانية كما يقول. استمع اليه فقط ، وهو يشرح لك كل شيء ؟

.. مسح سليمان نقاط الدم من على أنفه ، وجلس مقابل محمود يحدثه بالقصة من أولها ، بلهجة مؤثرة ، حتى دمعت عينا محمود ، فلم يتمالك نفسه بعد ذلك ، وقام وقبله قائلا باشفاق :

ـ انت أخي حقا ، واعذرني لاني ضربتك ، والآن أرجو أن تتفضل للغداء معي اذا كنت قد صفحت عني ؟

نظر سليمان الي مستنجدا ، وكأنه لم يصدق أن قلب محمود قد صفا له ، فقلت له بتهكم :

ـ لا أدري .. أنت أدرى بذلك مني ، انها خدمة انسانية أليس كذلك ؟ اذن استمر في خدماتك هذه يا بطل وقم تغد مع محمود ، فقد نضجت البيضات التي كنت تسلقها ، وقل لخالتك ، أنهم حلقوا له شوارب عنتر ، لانهم لا يسمحون بتربيتها قبل مضي ثلاثة أشهر ! وتعالت قهقهات الرفاق ، وأخذوا يعلقون عليه شامتين : ـ خرجك .. ـ حبل الكذب قصير ـ قال ربى شوارب متل شوارب عنتر .. وقال العريف علي معقبا :

ـ والادهى من ذلك ، أن المسكينة كانت تصدقه من كل قلبها ، ولكنه أكل نصيبه .. يستاهل !

.. تساءلت بعد أن ذهب سليمان مع محمود فيما بيني وبين نفسي : أتراه يستاهل ذلك حقا ؟ وهل جزاء الاحسان الا الاحسان ؟ لقد ادخل المسكين السرور الى قلب تلك العجوز مدة طويلة من الزمن ، وأجهد خياله باحثا عن صفات يصف بها محمودا . ولو أن ابنها قد ربى شاربه ، لما حدث ما حدث ولظلت العجوز تبيعنا السكر والشاي بأسعار رخيصة ، وتسلق لنا البيض ، وتسأل سليمان أن يخبرها للمرة الالف عن ابنها محمود ، ليقول لها :

ـ اطمئني يا خالتي ، انه في أحسن حال ، كان يغني لنا دائما عتابا وميجانا ، وهو مبسوط جدا في الجيش . ثم يستطرد قائلا بعد ان تسأله عن مكاتيب ابنها التي لا تأتي :

ـ كتب المكاتيب ممنوع يا خالتي قبل أن يمضي ثلاثة اشهر ، وبكرة بعد شهر ، سيصلك منه مكتوب ان شاء الله .

ولبقيت أم محمود تقول لنا بحنان :

ـ يا تقبروني .. أطبخلكم برغل ؟ صار لكم زمان ما أكلتوا من طبخ البيت !

دمشق ـ ناشد سعيد



في ذكرى الشريف الرضي

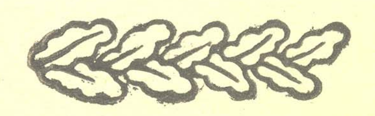
شعر: طه علي أديب

زيدي بنات القوافي الفن احسانا ... ورتلي الشعر تغريدا وألحانا
وأرسلي الشدو علويا على وتر ... لو مسّه الوجد غنانا فأحيانا
وليسم فنك في عليا مراتبه ... حتى يعود وقور القوم نشوانا
ألم يهزك ذكر للشريف نسدٍ ... ولم يثرك حنين هاج نجوانا
ان لم تؤدي حقوق العبقرية لا ... حامت على سبحات الحب روحانا
حيي العروبة في اكبار شاعرها ... ويممي الصيد من أبناء عدنانا
آل النبي فان الله زادهم ... حلما وعلما وأخلاقا وعرفانا
الغاضبين لدين الله ان صدفت ... عنه الملوك فلم ترفع له شانا
التاركين صروح البغي هاوية ... والرافعين من الاصلاح بنيانا
الثائرين على الطغيان محتدما ... بعزمة الحق حتى انهد أركانا
تنكروا للأذى والضيم فانتفضوا ... كالليث ينقض دون الغيل غضبانا
لاينثنون اذا شدوا لطيتهم ... يزيدهم حدثان الدهر ايمانا
كم نكّلتهم صروف الدهر ظالمة ... فلم يغضوا عن التنكيل أجفانا
وكيف يبلغ ما يرجوه من أمل ... من بات دون العلى والمجد وسنانا
نيل الشهادة أشهى منهل لهم ... ما مات من حار عنه الموت خزيانا
قوم اذا عد أهل المكرمات ترى ... اليهم قد أشار المجد جذلانا
أو كان للشعر في الجوزاء منزلة ... جاز الرضي به آفاق كيوانا
صاغ اللآلىء عقدا في قصائده ... فراح يلمح ياقوتا ومرجانا

تهللت بدعة المنصور وانعطفت تيهاً تباهي به أبناء يونانا
وانساب دجلة تياها بأن وجدت مواكب الشعر في شطيه ربانا
ترى الطيور على الشطين صادحة تغازل الآس والنسرين والبانا
أتيت بالشعر آيات مفصلة ففاق فناً وإبداعا واحسانا
فتحت فيه ميادينا تصول بها كما فتحت لفن النثر ميدانا
كم من قصيد كأن السلسبيل به ينساب في جنبات النفس غدرانا
عذب مصفى يحاكي نفس قائله تخال سامعه يهتز سكرانا
كأن في نسجه سبك الوليد وما أحلى القريض بحسن السبك مزدانا
نمده فكر غراء سامية يظل بدر الدجى منهن غيرانا
لو عدّ في العرب أفذاذ عباقرة عددت فيهم وما قصرت تبيانا
لو كان للحب حكم المرء في أدب لقلت : أرجحهم في الشعر ميزانا
لكن للحق والآداب منزلة لا أستطيع لها في الحكم نكرانا
ان لم تجيء سابقا ما كنت منكفئا ولم تكن دونهم فنا واتقانا
لك القريض يسامي النجم مرتفعا حاز الخلود وضم الحسن ألوانا
جاب البلاد وجاب الدهر منتقلا على القرون فما أكدى وما هانا
سل الحجاز تجب عنه مناسكه كم هز أعطافها شوقا وتحنانا
فجرت فيه ينابيع الهوى فغدت بطحاؤه من عيون الحب بستانا
سكبت روحك في شعر نفحت به روح الهوى فغدا تاليه هيمانا
نفثت فيه صبابات أرقت لها تثير في قنوات القلب أشجانا
هل (ظبية البان) تصغي لي فأخبرها كم قد أثارت شجونا هجن أحزانا
رمزت فيها لأمر لا يحاوله الا امرؤ قد أعد النفس قربانا
تحوطه فئة شماء صاعدة قد حلقت في سماء المجد عقبانا
ترى الخلافة أولى أن يفوز بها من كان للفضل والعلياء عنوانا
لو أنصف الدهر لم تمنع منابرها ولا لقيت من الأيام حرمانا
ان لم تقم دولة زهراء ناهضة فقد بلغت بملك الشعر سلطانا

تفنى الممالك والتيجان هاوية ... الى الزوال ويبقى الشعر أزمانا
غضبت لما رأيت الأمر يبرمه ... خزر الأعاجم من أبناء ساسانا
زووا خليفتهم في القصر محتجبا ... وصرفوا الامر بين الناس طغيانا
ما كان آل بويه للعلى عددا ... لكن للمجد عدنانا وقحطانا
وددت لو تبصر الزوراء راجفة ... بعارض من دم ينهل هتانا
في غارة ينهل الموت الدماء ولا ... ينفك في ورده الفوار ظمآنا
تلقى الكمي يباري الريح مستبقا ... الى الفرار يمس الجنب لهفانا
في غمرة تورد الأبطال حتفهم ... وتترك الوالد المحزون ثكلانا
أردتها ثورة حمراء جارفة ... غضبى تسعر في الآفاق نيرانا
تعيد للعرب الأحرار حقهم ... وتوسع الدخلاء العجم خذلانا
ليت الرضي يطل اليوم مطلعا ... من الخلود على آفاق دنيانا
وليرم بالطرف هل يلقى بدارتنا ... للفرس شاهاً وللأتراك خاقانا
ضج الشريف فثارت نخوة جمحت ... في أنفس العرب تذكيها سجايانا
لما استقى المجد رويناه من دمنا ... دم الأخادع حتى ارتد ريانا
اذا غضبنا ركبنا السحب صاعقة ... والبحر مستعرا والبر بركانا
نروح والوحدة الكبرى تطالعنا ... ونغتدي وخيال المجد يلقانا
لابد أن تلتقي يوماً أواصرنا ... آهلا وقوما وأصقاعا وأوطانا
اذا شكا المغرب المحبوب أوصديت ... شبه الجزيرة آكاما وقيعانا
ترقرق النيل منسابا الى بردى ... والرافدين فعاد الربع فينانا
وعانق الأرز في لبنان مبتسما ... غابات أوراس أفياء وأفنانا

طه علي أديب



شوق وعذاب

تنويع

شعر: عمر أبو قوس



أوهى الفراق عزيمتي وتجلّدي   فبكيت عند وداعها بتوجُّدِ
وتبادرت عبراتها سحّاً على   وجناتهـــا كاللؤلؤ المتسرّدِ
وذكرت أيامـــاً مضين جميلةً   فيها نعمنا بالصبابة والـــددِ
وظلال عيش « وارف » فيه انقضى   عهد الصبا فكأنه لم يوجَدِ
أعطي القرينة حقها وأزيدها   وأروح في نِعَمِ الجمال واغتدي
حتى رماني الدهر بالدَّيْن الذي   تعنو له نفس الأبيّ الأصيدِ
وتقول لي خلّ الترحـل إنني   أخشى عليك من الزمان الأنكدِ
وشقاء عيشٍ قد تكابد مُرَّه   لم تلقـــه عنـدي ولم تتعودِ
فأجبتها لا تجـــزعي وتجمّلي   للحادثات فان حبك مسعدي
سأطوف في الآفاق حتى ينجلِي   ليلي ويدركني الصباح فأهتدي
أَو ما ترَيْن الدَّيْن أثقل كاهلي   وأذلني من بعد عيشٍ أرغدِ
فكأنني ممـــا أكابد ميّت   طويت صحيفته وان لم يُلحَدِ
فاذا قضيت وليس ذلك عائبي   فالموت من كل النفوس بمرصدِ
فتذكري لهفي عليكِ وأنني   لولاكِ لم أرحل ولم أتشردِ
وتزوّدت شفتايَ من وجناتها   قُبلاً غَنيتُ بها فلم أتزوّدِ
ورحلت عنها جازعـاً متحيراً   أطوى الضلوعَ على اللظى المتوقدِ



طيور زرقاء :

طيور زرقاء تملأ مدينتي ، تعطر طرقاتها ، تسكر ارضها ، تعانق شرفاتها .. طيور تصحو مع الشمس ، تنطلق مع الضياء ، تزغرد ، تمرح ، تصيح ، تطلب فيهرع الناس الى رؤيتها والتمتع بانطلاقها ومرحها .. وتحوم حول كل طير روح ام، تحرسه ، ترعاه ، تتمنى لو تستحيل ذرة سعادة تطرحها تحت اقدامه ، بسمة ترضع بها ثغره ..

طيورنا الحبيبة تغادر بيوتنا ، تحمل حقائبها الصغيرة ، واوراقها الملونة فنلحقها بقلوبنا وعقولنا .. تتوسل العديدة ، تقطب تارة ، وتصيح اخرى ، تتعثر ، تتمرد وحبنا ، تأمر فنطيع عن رضا فطيورنا ملوك لهم الامر وعلينا الطاعة ..

وبعد دقائق تصمت المدينة ، وتوحش الدروب ، وتموت الحركة في البيوت .. اين تراها تختيء طيورنا الزرقاء ؟ اين تذهب ؟.. انها هناك تحتويها المدارس اليها ان ترضى ان تسمح دمعتها ، ان تقبل عطائنا على الدروس ، ترمي الكتاب تمزق الثوب ، تتعالى بما تملك من قصاصات ودمى ، تسيّر المراكب تقلد الاساتذة ، تتقاتل تتنافس ، فيسجد قلب الأم على اعتاب الجماد متوسلا خاشعا يتضرع للحجارة .. ارجوك ايها البناء كن رفيقا بطيري الازرق الجميل ، انه ابني ومعنى وجودي وعدةمستقبلي، وانتم يا من ترعون طيورنا ، ترجوكم قلوبنا ، ان تبسموا لطيرنا الحبيب ان تكونوا له عونا ..

ويموج البناء بضجيجه ، وتتعلق الروح البريئة ، برنة جرس ، بصوت معلمة .. ماذا ؟ ؟ الطير الصغير يرتجف ، يرمي دميته ويهمل حلواه .. فالدفتر في البيت .. والقلم مكسور ، وتسبق دمعته كلمته ، ويخبط قلبه الصغير وتتصلب نظراته على شفتي معلمته .. تراها تضربه ؟ تصيح به ؟ .. تحرمه اللعب .. وتتسائل المعلمة عن سر خوفه ، وتحاول التقاط لألئه ، فتعود البسمة الكبيرة الى الوجه الملائكي .. وتمضي الساعات والطيور جادة لاهية واثقة خائفة .. ويزحف النهار عن المدينة فتأبى الشمس مغادرة الافق تريد احتضان الطير ويرفض الظلام احتلال الطرقات قبل ان تأوى الطيور الى احضان اهلها .. لا لن يحتل الطرق ويخيف الطفل .. فتلبي الطيور وتعود الى المدينة .. فتنتشي الشوارع وتشرق البيوت وتزغرد الشرفات ويهدأ قلب الأم فطيرها بين احضانها يعبث بقلمه ، يمزق دفتره يئن من اعداد وظيفته ، يناجي دميته .. ثم يغفو الطيرالملاك مع بسمة الاب وحنان الام وصلاة المساء ..

خالدة

وضربت في أرض العروبة باحثاً — عن صاحب حلو الشمائل أمجدِ
يعطى على الحمد الكثيرَ ولا يرى — فضلاً له في الجود ان لم يزددِ
ويصون وجهى عن سواه مبادلاً — حبي بحب مثله أو أزيدِ
واانا الزعيم له بذكرٍ خالدٍ — يبقى على مر الزمان السرمدِ
فاذا الذي أرجوه برق خلّب — أو لمع آلٍ كاذب في فدفدِ
أو زئبق يغرى العيون بحسنه — فاذا هممتُ به تفلّت من يدى
أو حلم بائرةٍ بليلة عرسها — شوهاءَ مهما تطلّبْه يبعُدِ

الذكاء والتربية

نذره اليازجي

اهتم علماء التربية بدراسة سلوك الانسان وموقفه ازاء المسائل الانسانية كما اهتموا بدراسة الذكاء • وسعوا أن يضعوا قواعد عامة للتربية • ومع ذلك لا نزال نسأل ، ما هي التربية ؟ وهل هي توجيه الذكاء وصقله ؟ وكيف يوجه الذكاء ويصقل ؟ وهل ان الذكاء هو مجموع القوى النفسية والجسدية أم أنه ظاهرة مستقلة ؟•

ليس الذكاء بمعناه العادي الا عمليات دماغية حسية تنشأ عن التفاعل بين الدماغ والموضوع الخارجي كمادة ايضا ، لذلك لا يعبر عن مجموع القوى الفاعلة في الانسان لاننا لا نستطيع ان نقيس صفات هذا الذكاء كما اننا لا نستطيع ان نقيس قوى النفس والروح ولا يمكن اخضاعها لقوانين • فهي مجردة عن كل القياسات الظاهرة الحسية التي يعبر عنها بالذكاء • وعلى هذا الاساس يتمثل الذكاء بالتفاعل الحسي بين الدماغ وموضوعه ويعتمد اعتمادا مباشرا على امكانيات المادة ••

أما الفكر فانه يعبر عن العلاقة والترابط والانسجام بين القوى القائمة كروح ونفس لان الانسان طاقة داخلية ووجود خارجي ، يتفاعل مع الداخل والخارج • ولذلك كانت التربية توجيها لقوى الانسان بأجمعها ، أي الفكر ، وبما ان الذكاء مضمون في الفكر لذلك فهو يوجه معه •

بماذا تهتم التربية ، او بالاحرى بماذا يهتم المربون والقائمون على ادارة المؤسسات التربوية ؟

انهم يهتمون بصقل الذكاء وتنميته ، وهكذا يهتمون بتربية القوى المادية على حساب الفكر بشكل عام• وقد سمي عصرنا بعصر العلم اي سيطرة الحس اي عصر الذكاء أي عصر المادة •

وتهتم التربية ايضا في زيادة التوتر الذهني أي فاعلية الذكاء • ولذلك يقصر المهتمون تقصيرا كبيرا بتنمية الانسان ككائن كلي متحد في وجوده • وهذا ما يؤدي الى اعتبار الشخص الذي ظهرت قدراته الدماغية لاسباب خاصة ـ كالتشجيع مثلا ـ انه متفوق على اقرانه • وهذا شيء لا يعترف به القانون الطبيعي لان الطبيعة ليست وجودا ماديا حسيا فقط بل هي ايضا صفات مجردة ومثل •

يمثل الانسان فكرة المطلق في هذا الوجود كما انه يعتبر فكرة الوجود ولذلك وجدت في الانسان جميع القوى الفاعلة في الكون • وبما ان الكون مادي وللمادة صفاتها ، وبما ان الانسان قد صنع من هذا الكون المادي فهو اذن يتصف بصفات المادة لانها تركزت فيه ، فهو اذن مثالها • وبما ان للمادة مثالا اي فكرة اي هدفا وبما انها متضمنة في الانسان كوجود لذلك يعتبر الانسان انه فكرة الوجود أي انه الكون في امتداده واستمراره • وهكذا توجد جميع عناصر المادة في الانسان فيعمل على تحقيقها كفكرة او كمثال •

ولا شك ان جميع الناس قد خلقوا بصفة واحدة هي صفة الوجود والحياة • وهكذا تعمل عناصر

الوجود في الناس بفاعلية وقوى متشابهة • وطالما ان الناس تتمثل فيهم فكرة واحدة وهدف واحد وتعمل فيهم عناصر الوجود بتشابه عجيب ، لذلك فهم متشابهون بالمعطيات الطبيعية الاصلية • فلماذا توجد الفروق في الذكاء بين الناس ؟ الا نفرق بين شخص وآخر لاننا اعتمدنا على ناحية واحدة من نواحي وجوده تطورت ونمت بسبب دافع شخصي او مشجع؟ اتعد عملية التفريق سهلة الى هذا الحد ؟ وهل يمكن التفريق بين انسان وانسان طالما اننا نكاد نجهل طاقاته وامكاناته ومواهبه ؟ الا يعني هذا ان التربية قد حصرت مفاهيمها لتوجيه وصقل الذكاء دون اعتبار المواهب الفردية كلها ؟ وماذا يحصل للمواهب الاخرى ؟ الا يمكن ان تتعرض للضياع والهدر وعدم التقييم ؟

ان الذكاء بمعناه الطبيعي، هذا الشعور والاحساس بالوجود • الشعور من حيث انه فكرة نحياها في عالمنا المادي والاحساس بالوجود من حيث انه واقع • فهو تحقيق للمطلق والذات معا • ولذلك لا نستطيع ان نحدد الذكاء ونقيسه كما نقيس تجربة مادية حسية • وطالما انه يعبر عن كياننا ، وطالما ان الانسان لا يخضع للقياس ، لذلك لا نستطيع ان نعتبر تفوق الانسان من ناحية ذكاء وتأخره من ناحية اخرى قلة ذكاء •

الا يعتبر الشعور والاحساس بالجمال ذكاء ؟ الا تعتبر التضحية ذكاء ؟ الا تعتبر النفس المحبة ذكية ؟ الا تعتبر الابتسامة البريئة وتحمل المصاعب ذكاء ؟ الا يعتبر الحس الرفيع بالشعور والكرامة ذكاء ؟ الا تعتبر الشجاعة الادبية ذكاء؟ الا يعتبر التصوف والايمان ذكاء ؟ الا تعتبر احلام الشعراء ذكاء ؟ الا تعتبر تجارب العلماء ذكاء ؟

هكذا نرى ان الذكاء يظهر في المواهب العامة ولا يمكن ان نحدد صفاتها لان كل موهبة ، او ذكاء ، هي اشتراك لجميع عناصر الكون في الانسان وانسجام بين الاعضاء المكونة للجسد • لذلك فهو عملية نفسية وجسدية لانه يظهر بمظاهر مختلفة ، أي انه يمكن ان يكون عملية دماغية تنشأ بين الدماغ والموضوع كما يمكن ان يكون الهاما • ويمكن ان يكون شعورا عميقا بالجمال كما يمكن ان يكون الملاحظة الدقيقة والتركيز الدماغي والتجربة الماديه• ويمكن ان يكون تضحية حتى الاندماج التام بالموضوع كما يمكن ان يكون الحس المرهف والتوتر الذهني الخارق • فالذكاء اذن نافذة من نوافذ المواهب • لذلك يلزم ان تربى المواهب لكي يكون الانسان ذكيا ، اذ لا يعقل ان يكون الانسان ذكيا في شيء وجاهلا في شيء آخر •

ولا بد ان نتساءل : هل يمكن حصر الذكاء في الدماغ ؟

ان الدماغ هو المكان الذي تتمركز فيه عمليات الحس والشعور والانعكاس • وتعتبر عمليات الحس انها ترابط مباشر بين الدماغ كمادة مصورة والموضوع كمادة قابلة للتصور او انها تتضمن صورة •• وتعتبر عمليات الشعور انها مفهوم الوجدان الناتج اما عن عمليات حسية او المعبر عن روحانية الانسان ؟ وتعتبر عمليات الانعكاس انها ارتباط لا واعي وانجذاب لا عقلي بين الدماغ والموضوع الخارجي ، وتعني بهذا الافكار التي تنشأ عند الانسان دون تفكير او تصميم او تجربة ، وتتمثل بالنزوات والانفعالات والدوافع •

تصل الى الدماغ كل هذه العمليات فتبوب وتصنف وتحفظ وتكون نقطة انطلاق فكري • وتسمى باسماء مختلفة كالذاكرة والتنبؤ مثلا • واما الاسم الحقيقي الذي يطلق عليها فهو العقل ــ العقل الذي هو تفكير الدماغ • وبما ان الدماغ يمثل الاتصال المباشر مع الموضوع الخارجي بواسطة الجسد فهو وسيلة هامة للادراك وتحويل لكل ما هو حسي او شعوري الى عقل • فالعقل يمثل التفكير

الناتج عن الوجود الانساني كله .

والدماغ أقرب صلة للجسد منه للروح أي المطلق لانه يعتبر قائد المادة . ويمكن لهذا الدماغ ان يقصر في تفهم عمليات الشعور طالما ان هناك مشاعر كثيرة وقائمة في اعماقنا لا نكون قادرين على ادراكها .

وبما اننا لا نستطيع ان نحصر الذكاء بعملية ذهنية واحدة لذلك فهو لا يعبر عن طاقات الانسان كلها ، لكنه يعبر اكثر ما يعبر ، عن قوى الحس اي العلاقة المباشرة بين الانسان والموضوع . وهكذا نرى ان الدماغ يمثل ناحية معينة من الذكاء وليس كل النواحي . وطالما ان كل العمليات الحسية والشعورية أي الوجدانية تنصب فيه ، وبما انه يتقبل الحس اكثر من الشعور ، لذلك لا نستطيع القول ان الذكاء هو عملية دماغية فقط بل نستطيع القول انه النافذة التي تنفذ فيها طاقة او قدرة انسانية معينة . وما يبرهن لنا على هذا القول هو ان الدماغ يقصر في تفهم او تذهن ابسط حالات الشعور والوجدان .

ان التربية مسؤولة عن عدم اظهار الذكاء . والطرق التربوية التي تتبعها المؤسسات التربوية ليست جديرة ان تحافظ على قيم الحضارة وان تنطلق فيها . ويعود السبب الى ان التربية لم توجد كوسيلة فعالة لايقاظ القوى النفسية والجسدية معا . فلم تعتبر النفس كما اعتبرت الفيزيولوجيا . وهكذا يختل التوازن بينهما فيضيع كثير من المواهب ويخسر الانسان قسما كبيرا من طاقاته وقدراته الطبيعية .

ومع هذا كله فنحن لا ننكر ان عصرنا هذا اكثر ذكاء من العصر السابق وان العصر المقبل سيكون اكثر ذكاء من الحاضر . ويعود هذا الى سبب بسيط وهو ان الوسائل التي تحث الذكاء في اتجاه معين اضحت في متناول الانسان اكثر من قبل . ونستنتج من هذا ان الذكاء هو ، بمعناه العادي ، عملية حسية ومادية قابلة للتبدل والتغير طالما انها تعتمد على الوسائل الموجودة والتي تقويها . ولا شك ان العامل الذي يعمل في آلة معقدة اكثر ذكاء من عامل يعمل في آلة بسيطة ، ولكن هل يبرهن هذا ان العصر المقبل سيكون اكثر تحقيقا للمواهب ؟ لا ندري ، وذلك لان العصر الحاضر لا يحقق الا الذكاء ، بمعناه العادي .. أي الجزء الظاهر من طاقة انسانيته . واين تعيش القوى النفسية والروحية، وماذا يعمل الانسان لكي يحققها ويقويها او هل تعتبر من صفات الذكاء او انه لا علاقة لها به؟

لكي يعبر الذكاء عن طاقات الانسان يلزم ان تهتم التربية بالنواحي النفسية والمادية معا . فيعلم القائمون على التربية الاولاد الصفات التالية : الشجاعة الادبية، حب التعاون والتضحية ، عدم النميمة والغيبة ، عدم حب الاثرة ، الانتصار على الكبرياء والشهوات ، قول الصدق ومحبة الآخرين ، التواضع والبساطة .

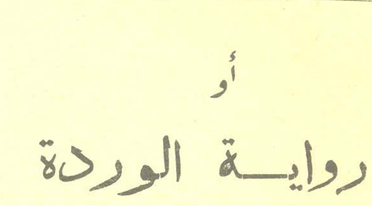
ان اهمال هذه الصفات يعني ان التربية قد اعتدت على مواهب الانسان بشكل عام . فهل يتعلم الطالب هذه الصفات في المدرسة ام في البيت ؟ وهل تربي شخصيته ليكون انسانا فاضلا وعاقلا وحكيما وكريم النفس لا ذكيا في احدى المسائل فقط ؟ لذلك يلزم ان تسير هذه الصفات جنبا الى جنب مع الذكاء والا ستبقى الهوة قائمة بين الروح كمواهب والجسد كذكاء . ولا شك ان ما نراه في الوقت الحاضر من انتصار للذكاء وتخلف في الحقل الروحي يجعلنا نسقط الى عالم الفوضى الاخلاقية وان نسعى وراء الشهوات وان نحقق الاماني والآمال التي انهكت الشباب وهم يتخيلونها . ولذلك يضيع الانسان طالما ان قوى الذكاء المتمثلة في تحقيق الجسد كوجود مادي لا تعادل قوى الروح المتمثلة في الكيان والمواهب . ويعتبر القرن العشرون متأخرا في المجال النفسي لانه ترك المجال مفتوحا للذكاء ، بمعناه العادي ، بينما اغلقت ابواب المواهب الروحية والخلقية . وهذا ما يؤدي الى انحطاط الحضارة .

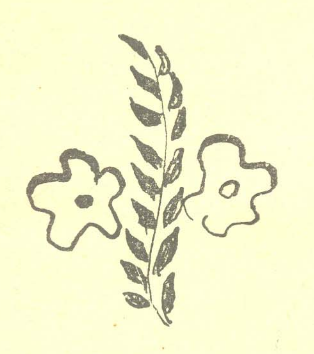
الملحمة الرمزيّة

قصة نهاد رضا

أو

روايـــة الوردة





رواية الوردة منظومة شعرية ، رمزية ، تعليمية، مؤلفة من قصيدتين مختلفتين روحا وأسلوبا ، وضع الأولى غيوم دى لوريس بين ١٢٢٥ و ١٢٤٠ وتضم أكثر من أربعة آلاف بيتا ، ووضع الثانية جان دي مونغ بين ١٢٧٥ و ١٢٨٠ وتضم حوالي ١٨٠٠٠ بيتا .

القصيدة الاولى :

غيوم دي لوريس

حياة دي لوريس مجهولة ، ولكن يبدو أنه توفي في سن مبكرة ، لأنه ترك قصيدته ناقصة . القصيدةمهداة لحبيبته ، وتشتمل على **فن الحب** ، وهي مقدمة في شكل حلم رمزي .

آ ــ الموضوع :

في صبيحة يوم من أيام أيار كان **الشاعر** يتنزه في الريف ، فاذا به يجد نفسه أمام مملكة الحب ، التي يحيط بها سور عليه عشرة أنصاب رهيبة هـي : الكراهيــة ، الخيـانة ، الدناءة ، الطمع ، البخـل، الحسد ، الحزن ، الهـرَم ، النفاق ، وترمز الىالقوى المعادية للحب .

هذه الصور الرمزية الرهيبة تحمي مدخل روضة اللذة . ويتكفل **الفراغ** بادخال الشاعر حديقة تغرد فيها الاطيار وتصدح الانغام . وانه لفي هـذه النزهة اذا به يلمح **وردة** ذات جمال عجيب .

ويرميه الحب بنباله ، فيقع في شباك الهـوى ، وهكذا يتحول الشاعر الى **العاشق** . وللعاشق أمنية واحدة : قطف الوردة .

ثم يملي عليه إلـه الحب قواعـد فن الحـب : تكتم ، أدب ، كرَم ، صبر ، وهي مطابقة لقواعد الحب المجامل المهذب ، علماً بأن المؤلف تأثر أيضا بالشاعر اللاتيني أوفيد .

ويضع العاشق نصب عينيـه استمالة الـوردة تساعده في ذلك **الخاطرة اللطيفـة** ، **الكلمة اللطيفـة** ، **النظرة اللطيفة** ، وهي ترمز الى الخصال التي تساعد العاشق على استمالة حبيبته .

وتقوده **الحفاوة** فيدنو من الـوردة ... ولكـن الخفَر والخوف **والخطر** تطرده ، لانها تقوم بـدور الحراسة .

إذ ذاك يهبط **العقل** من برجه لينصحه بالكف عن هذا الهوى . ولكن العاشق لايصغي الا **للصديق** الذي ينصحه بالاستمرار ، وبفضل هذا الاخير يهدأ غضـب **الخطر** الذي يرمز الى العوائق التي تعترض سبيـل الهـوى .

وتعود **الحفاوة** فتسمح له بالاقتراب من الـوردة وتقبيلها .

ولكن **النمّام** يرى كل ما حدث ، فينبه الغيرة التي تعتقل **الحفاوة** في أحد الابراج ، وتحيط روضة الوردة بسياج .

إذ ذاك يعتري العاشق اليأس من قطف الوردة ، ويعبر عن لوعته بنجوى ذاتية طويلة . عند هذا الحد، يتوقف السَرد .

ب ــ نظرة تقديرية :

لجأ غيوم دي لوريس الى طريقة الحلم التي كانت شائعة في القرون الوسطى ، واستعمل طريقةالصورة الرمزية التي تشخص القوى النفسية والمعاني المجردة، وأضفى بالتالي مظهرا انسانيا ووجودا خاصا على المزايا والمساوىء ، على المشاعر والانفعالات ، وعلى شتى مراحل الحياة .

من مساوىء هذه المجازات أنها تجزىء النفس البشرية تجزئة مصطنعة . لسنا أمام انسان كامل من لحم ودم ، بل أمام الخوف ، أمام العقل ، أمام الفراغ ... أمام شرائح مجتزئة من كيانه الكلي ، من قواه النفسية ومن مراحل العمر .

ولكن يجب التنويه بأن هذه الطريقة قد تنطوي أحيانا على شيء من الملاحظة النفسانية الصادقة . فالفراغ قد تكفل بادخال الشاعر إلى الحديقة ، فجاء كرمز لبعض العوامل الدافعة . وقديما قال الشاعر العربي :

إن الفراغ والشباب والجِدَة
مفسَدة للمرء أي مفسدة

مهما يكن من أمر فان دي لوريس يصطفي الوردة لتشخيص الحبيبة ، وهذه الفكرة ليست من ابتداعه، ولكنه يضفي ردود فعلها على ذوات عديدة تصبح منفصلة عنها .

وحدَه **الشاعر** أو **العاشق** يظل شخصية حقيقية الى حد ما ، وان أنقسهم هو أيضا الى الفراغ يدفعالى الحب ، والى الصديق يلهب شعلته ، والى العقل يحاول أن يرده الى ذاته .

ثمة هوى وحيد يستبد به ويملي عليه سلوكه ، مما يذكرنا بأبطال المآسي الكلاسيكية الفرنسية في القرن السابع عشر ، بل لعل مؤلفي هذه المآسي قد تأثروا بهذه الرواية الى حد ما في رسم وتصميم أبطالهم .

القصيدة الثانية

جان دي مونغ

خلَد جان دي مونغ اسمه بانجازه رواية الوردة. استخدم هذا الشاعر المفكر قصيدته كاطار لعرض آرائه ، وبذلك حوّل الرواية عن هدفها الاصلي ، واكتفى ببضعة أبيات لتحقيق الانتقال من القصيدة الاولى الى الثانية ، فجاءت القصيدتان مختلفتينروحا وأسلوبا كما أسلفنا .

آ ــ الموضوع :

يهبط **العقل** من برجه ثانية ، ويلقي خطابا يضم ألفين من الأبيات . وبحجة صرف العاشق عنالوردة، يتحدث له عن الحب والشباب والشيخوخة . ولكن العاشق لايقتنع ، بل يلجأ الى **الصديق** الذي يسدي اليه نصائح مخالفة للنظرة المجاملة المهذَّبة حول الفن والفوز بالحب النسوي ، ويضيف الى ذلك آراء في أصل المجتمعات والعصر الذهبي والسلطة الملكية وأنظمة الفروسية .

بيد أن تطبيقنظريات الصديقلاتولد الا الخيبة. ولحسن الحظ يتدخل إلـه الحب ويقرر مهاجمة الحصن حيث اعتقلت **الحفاوة** ، ويستعين بصورة رمزية جديدة هي صورة **المرائي** قصد بها المؤلف الغمز من رجال الدين ، وهي تذكرنا بشخصية طرطوف عند الشاعر موليير . وبفضل خدعة منه ينحر **النمّام** ويطلق سراح **الحفاوة** . ولكن الخفر والخطر والخوف تعتقل **الحفاوة** ثانية وتطرد العاشق .

إذ ذاك تتدخل **فينوس** وتحشد جيوشها وتهاجم ثم تنتقل الى ترسانة الطبيعة التي تصنع الحياة دونما كلل، تحت أشراف **جينوس** منظم الخلق، في حين يترصدها الموت ويحاول الفن عبثاً أن يكتنه أسرارها كي يحاكيها .

ماذا تبدي لنا الطبيعة ؟

إن الاشياء جميعا تخضع لنواميسها .. والحب أحد هذه النواميس .

فلماذا يرفض للعاشق ما يطلب بحق .

أخيرا تحتل القلعة، ويقطف العاشق الوردة ثم تبزغ أنوار الفجر .. ويستيقظ الشاعر .

ب نظرة تقديرية :

يلاحظ أن القصيدتين متشابهتان في استعمال الصور الرمزية رغم اختلافهما في الاسلوب، ولكن تبحر دي مونغ جرّ الى عيوب خطيرة منها : الافراط في استعمال هذه الصور الرمزية، التبجح بالمعرفة، الاسهاب وعدم التلاحم .

ومن جهة أخرى، صحيح انهما مختلفتان روحا، ولكن لا يغربن عن البال أن المنظومة تقع في مفترق الطرق بالنسبة الى تطور فرنسا الاجتماعي والسياسي والفكري . ان دي لوريس يحمل مُثل الحب المجامل المهذب في مراحلها الاخيرة، أما دي مونغ فوضع قصيدته بعد تعزز السلطة الملكية، وتزايد ازدهار المدن، وتفاعل الفكر المسيحي بفكر أرسطو .

مهما يكن من أمر فان قصيدة دي مونغ تضم مجموع أفكاره الاجتماعية الفلسفية .

العقل والطبيعة يعبران عن آرائه حول الملكية والنبلاء، حول الحب والزواج، وحول وضع الانسان في العالم .

إن جان دي مونغ يحارب المفاهيم المجاملة المهذبة، لانها تستعيض عن غرائز الانسان الصميمية بمشاعر اصطناعية .

وهو يجل الطبيعة اجلالا يصل الى درجة العبادة . فيرينا إياها تصنع الكائنات كي تملأ الفراغات التي يخلفها الموت .

باسمها يتمرد على النسك والعزوبة عند الكهنة .

باسمها يكره السلطات القائمة ويحترم العلوم أعظم احترام .

النبلاء لا قيمة لهم في حد ذاتهم، وهم ليسوا أكثر أهمية من الزراع .

الاكليركيون أرباب القلم أولى بالعظمة، لانهم أكثر ثقافة وأوسع اطلاعا .

إن آراءه الجريئة ومضة فكرية من أعماق الماضي فيها لمع سباقة مبشرة بآراء رابلية وفولتير، حتى ان بعضهم سموه فولتير القرون الوسطى .

هذا وقد نشب في مطلع القرن الخامس عشر نزاع أدبي شهير بين أنصار دي مونغ وخصومه، وهاجمته الشاعرة كريستين دي بيزان بسبب رأيه في المرأة .

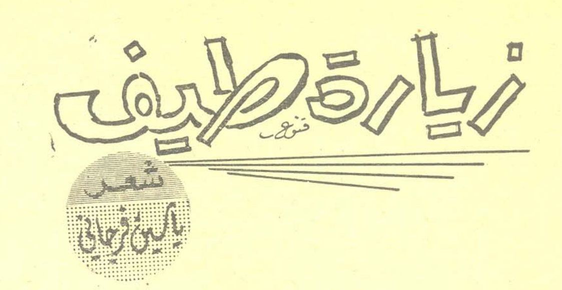
وجملة القول ان رواية الوردة عمل أساسي من الاعمال الادبية في القرون الوسطى، تأثرت بها أجيال عديدة من الشعراء والكتاب . وقد جدد الشاعر كليمان مارو لغتها ونشرها في حلتها الجديدة عام ١٥٢٧ م، أي أي بعد مضي أكثر من قرنين على تأليف هذه الملحمة الرمزية .

نهاد رضا

من كتابه المنتظر

الادب الملحمي في القرون الوسطى

★ ★ ★



أهـلاً بطيف زارنـا أهـلا يامرحباً بالطلـة العجلى ...

بـالطيب فواحـاً تـرف بـه إما تضوَّع ، نسمـة كسلى ...

بـالخطوة النشوى .. مرابعنـا سكرى بها ، مفتونة جـذلى ...

بالحسن آيـة مبـدع نطقت في الوجنتين ، وسورة تُتلى ...

بـالحب نمامـاً تبـوح بـه مهما تكتمَّ ، همسـة وجلى ...

بـالنظـرة النجـلاء غارسـة في القلب ، طرفة هدبها ، نصلا ...

ما السحر .. ؟ أمضى منـه قاتلـةً دعج العيون ، ولفتة خجلى ...

* * *

يا طيف : بـدر التم مؤتلقـاً تا لله لا أبهـى ولا أحلـى ... ؟

مـنْ وسلـوى ينطفـان منىً لعس اللمى ، والمقلة الكحلى ...

أهفـو ومـن ذكراكَ لاعجـة بين الجوانح ، نارها تُصلى ...

حتـى اذا ماعـدتني هـدأت مني الشجون ، وقد طغت قبلا ...

وتـأيت نجلاً بالهوى زمنـاً لانلتقي .. أستعطف البخلا ...

لقيـاكَ نعمي .. كـل جارحـة فاضت هوى ، وتهللت وصلا ...

* * *

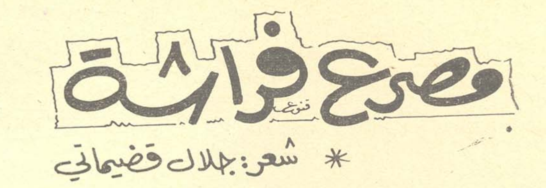
يـا طيف : حسبي خطـرة سـألت عني الجنون ، وزدنها سؤلا ... ؟

مسراكَ نبضـة خـافقي فعلى درب الحنين ، سفحتها بذلا ...

لو أستطيـع فرشتـه فرحـاً بالنجم ورداً ، والضحى فلا ... ؟

أغلى مـن الـدنيـا وزينتهـا لمحاً تمر بناظري ... أغلى ...

ياسين فرجاني



* شعر: جلال قضيماتي

طارت .. وفي شفة المصباح راق لها
حسن ، فقامت بجنح الليل تنهُله

ظمأى الى النور ، مشغوف به ، كلف
ضميرها .. وهي طول العمر تأمله

أنّى رأته مضت يحدو بها أمل
كصادىء ، لاح بعد البعد منهله

كذلك النفس ، تهوى كل فاتنة
ودأبها الحسن مهما عزّ منزله !

* * *

وكان ليل بطيء النجم معتكر
أرخى وشاحه حتى ضاع أوّلهُ

خلا ، سوى من بقايا سُمَّرٍ ، وسنا
أشعّة ؛ كبد المصباح تبذله

يضيء في الظلمة الدكناء بارقه
كأنه العطر ، كفّ الريح تنقلهُ

تاقت إلى نوره والليل منسدل
فراشة راعها ما كان يرسلة ..

* * *

دّفت قليلاً وحامت قرب مبسمه
مشغوفة بالذي همّت تقبّلُه

حتى هوت جثة في الأرض ضارعة
أودى بها بعد أن راحت تعـلّله

وربّ هائمة بالحسن مولعة
قضت وذنب الهوى والشوق تجهله

كذلك الحب يضنينا ويقتلنا
ونحن رغم الاسى والموت نحمله ..

مصلوبة الجسد

قصة

* خالدة عبد الله



من غرفتي المنسية في أعماق الليل والساجدة على اعتاب قاسيون يتهادى سؤال شارد على شفة غير مرئيـــة : مـاذا تكتبين ؟؟ فاقهقـه سـاخرة واغلق جفوني على صورة مهتزة •• واتمتم •• كنت يوما انسانة •• لها البيت والوطن•• والحب والحبيب •• والقلب والفكر •• لها ورقة بيضاء وقلم مطواع •• فأكتب واكتب •• اما الان •• اني مواطنة بـلا وطن ، وحبيبة بلا حبيب ، وانسانة بلا قلب، وكاتبة بلا قلم •• املك قلما مكسـورا وقلبا شريـدا •• وموطنا كئيبا •• فكيف أكتب ؟ ؟ ولمن ؟ ؟ أهنـاك من يقرأ كلماتي •• ويسمع آهاتي ؟ أهنالك من يهمه وجودي واحتراق حـروفي ••؟ أهناك من أناجيـه فيسمع واناديه فيهرع •• لا اني وحيدة في الدروب العديدة •• وحيدة مع الذكرى والحنان ، مع الظلام والالحان كلماتي لن تصل اليه ستبقى حبيسة غرفتي ترددها شجرتي وتعرفهـا دمعتي • • لا لن يقـرأ انساني حرفي الشهيد ، ولن يحضنه بنظراته المشعـة ويمسه بيده الراعشة ، ويحنو عليه ويحفظه قـرب قلبه ويخاف عليه الضيـاع •• أكتب ؟ من يقـرأ حرفي •• سيقرأه العالم بأجمعه ويضل طريقه اليه••

وأنا أ أكتب لغيره •• لا كنت ولا كان حرفي ان نادى غيره •• لاكنتولا كانت كلمتيانلجأت الى سواه•• لذا كسرت قلمي وبـددت حلمي وحطمت الحـاني واخرست كلماتي •• انتهت الانسانة التي كنتها يوما •• وانتهت معها احلامها واما لها وكلماتها •• انهـا هناك تغفو على زند حبيبها يلفها الموج ، يوشوشهـا القمر يناديها النجم يتهادى بها الزورق اميرة يابانيـة مع انسانها الرائع ترنو اليها المائدة الصغيرة في الشرفة الواسعة، وكأس الخمر المسفوح على ثوبها الاحمر الذي حمله اليها من باريس ثوب عرسها الذي لن تحضره • لا لن يكن لها عرس ولن تغلق باب مخدعها على امنية طالمـا صلت من اجلها •• ولن يكن لها الطفل الذي انتظرته عمرها • •

انها هنـاك وستبقى اسيرة لحظتها •• لن تغادر مكانها حيث يستريح الرأس المتعب على الزند القوي لن تعود لدنيـا الناس وحيدة ، انها غريبة عنهم ، غريبة بحبها وفهمها للحياة ، غريبة بعطائها السمـح وفنائها قرب حبيبها وعبادته ، •• انها تعبده ، وتعبد فيه الخطيئة والخيانة ـ تعبد فيه الحب والهجر •• فحياتها عند موطىء اقدامه ، ووجودها رهن ارتعاش

نظراته ، ليتركها ، ليخونها ، ليذهب للاخرى فهي تحبه وتعبده ، ولا تقوى حتى على عتابه .

لا .. لن تتركه وتعود الى دنيا الناس الغارقة في التفاهة ، لن تعيش ماديتهم اللزجة .. ابنة الليل .. تنكرها الشمس ، ابنة الخمر تكرهها المدينة الجاحدة .. ابنة الحب تضل طريق الاخرين ، ابنة النار ، اللحن غذاءها والافق الملون عالمها ، والكلمة الحلوة غايتها والرعشة المحمومة دنياها .. وكبرت الدمعة في العينين الواسعتين وابتلع البحر الشمس بنهم وثورة .. وحضن الظلام الكأس والحبيب .. فصاحت مذعورة .. لا لن اعود .. هنا مكاني .. فلاح شاب يحمل اليهما الضوء ، وعصفور عاشق يسكر النهر ، ودرب موحش يسجد للصبح ، ونجم صغير يتمسح على اهداب غرفتها ، وجدول متعرج يرقب هدية حبهما .. انها مع انسانها وحبيبها وزجاجة خمر لم تمس شفة عابد ، ولفافة تبغ لم تحرق اصبع ثائر .. كل هذا ملكها وغدا لن يكون واختنق الحرف ومات الفم ، وتجمد الزمن .. لن أعود .. سأصلب جسدي على زند حبيبي ، انه انساني الذي احببت الوجود اذ احببته ، انه لي وغدا لن يكون .. لن تعرف عيناي النور وقلبي الخفوق وانا بعيدة عنه لا لن يكن لغيري ، لن اعيش والغريبة في بيته .. تعيث بأشيائي وتطرب بكلماتي وتشرب من كأسي ، ليقف القمر وتجمد الشمس على جسد عابدة في رعشة حبها وعلى صدر حبيبها ، تلفها انفاسه وتظللها اهدابه .. لتمت ويموت معها زمانها ومكانها . لتنته بين يديه ..

البيت الريفي المرتمي قرب العاصي ، مصباحنا الزيتي وكأس خمرنا المسروق من المربع الليلي وفوضى حقيبتنا وعبق نشوتنا ، وغطاء السرير الضائع وكرسينا الوحيد كلها تعرف قصتنا وتعيش همسنا وتردد انفاسنا .. قصتنا تعرفها طرقات دمشق التائهة في الظلام وترددها الموجة الكبيرة والشرفة الواسعة والرعشة المخمورة وبيت حب انيق وسيارة صغيرة بيضاء تطير في غابة فينا وجبال انطاكية وطرقات استنبول .. قصة حبي يعرفها من يعرف دمشق .. حبي الذي ترعرع بالحنان .. حبي الخالد .. لن اعيش بلا حب . لن اعيش وعابدي بعيد .. سأهرب قبله سأختفي من دربه .. اني بين يديه الان صغيرة صغيرة .. يتحدث فاصغي .. ينام فأهدأ .. اني اخاف الغد . أخاف غدا افقد فيه حبي وابعد عن حبيبي ، اخاف غدا لا املكه وساعات اجهل جهة دورانها .. الغد ليس لي انه للاخرى املك لحظتي الحاضرة .. ساخلدها ... سأقف عجلة الزمان ، زماني انا .. زماني المصلوب على لحظتي ، سأبقى هنا زند حبيبي وسادتي وحبه زادي وحنانه حياتي ..

لن احتمل عبث الوجود وحدي . لن اسير في متاهات الدروب العاتمة وحدي .. لن اغادر غرفة شهدت ميلاد حبي ومصرعه .. لن اعود ودمعي رفيقي وحرفي الاخرس سميري ... دمشق تعرف حبي وحبيبي فلن أعود اليها وحيدة تساءلني شجراتها على ضفاف بردى ، وتبكي معي ياسمينة بيضاء على سلم بيتنا لن احتمل عتاب الورود وغضب الدروب وتساؤل الجدول وصمت اللحن .. وسخرية الشرفات ..

ابنة الظلام والشراب ستبقى مع الليل والكأس ... مصلوبة الجسد على زند الحبيب ..

تبقى اغنية ترددها السهول والوديان ..
نفحة عطر تسكر الانهر والجبال .

* * *

مشكلة التعريب

بقلم: دريد الخواجة

ان اللغات على مر الازمان ، كانت تمر بمراحل تحقق لها ادبارا واقبالا متفاوتين . وهي بهذا الحكم تصبح أكثر تقبلا ونزوعا للسقوط أو عدمه ، وذلك بحسب الاسباب التي تشد اللغة وتقيمها ، ونوعية هذه الاسباب المترتبة عليها النتائج . وهذا ما يفسر موات وموت بعض اللغات ، أو ذيوع وانتشار بعضها الآخر. والواقع أن هناك تأثيرات شتى تعمل في أواصر اللغة ، فتنفذ الى أعماقها مجربة غناها وأصالتها . أحيانا عن طريق مباشر يتبدى في قابلية اللغة وسعتها ضمن اطار القوة البيانية والمرونة المكتسبة من الماضي الى الحاضر، وأحيانا عن طريق مباشر ترفده جميع العوامل الحضارية من تكنولوجية الى اجتماعية فاقتصادية . والطريقان المباشر وغير المباشر ينظر اليهما كوحدة مجتمعة لها جوانب متعددة الاطراف ، تنتهي روافدها جميعا ، الى أوقيانوس الحضارة الزاخرة . ولعل اللغة بتعريفها الواسع تشمل معطيات هذه العوامل ، وتعبر عنها في حدود مكتسبات البيئة وصنوفها .

واللغة العربية التي فرع من اللغات السامية الاخرى، التي عاشت قرونا عديدة ، لابد لها بسبب خلودها وعدم تعثرها ، أن تتمتع بما ألمحنا اليه سابقا من قابلية وعوامل حضارية . مع أنها تدافعتها مصائب عديدة ، تكفي واحدة منها كيما تطيح بأية لغة بلغت مثل ما بلغته . هذا أمر ولكن الذي لايمكن تجاهله ، هو أنه حصل تداخل لغوي فيها ، غريب عليها . كان سببه الظروف السياسية المتعاقبة التي هيأت الكثير من الامور ، والتي قضت على انبعاثنا الفكري والحضاري ، مما أدى بعد ذلك الى (حركة التعريب) بكل أبعادها وخطوطها . والمهم في ذلك كله الى أي حد يجب أن يتحقق «الانفتاح» في اللغة بالنسبة الى اللغات الاخرى، وهل عليه — أي الانفتاح — أن يوجد بحتمية مطلقة تبعا لهذا الخلط العجيب ، بين حضارات الامم اليوم ؟، ثم هل يختلف هذا لتفتح — اذا وجد حتما — من لغة الى اخرى ، وما موقف اللغة العربية بصورة خاصة من كل ذلك ؟

قامت في البلاد العربية منذ عهد ليس ببعيد ، حملات واسعة تعريبية . اجتاحت الجمهورية العربية المتحدة، والجمهورية العربية السورية، وأخيرا قد تبنت **هذه الحركة الواسعة المملكة المغربية .**

والجدير بذكر هذا الموضوع ، هو كونه يستهدف الاتصال المباشر ، بما تخلقه الشؤون العربية من نشاط وثورة في مجالاتها الكبيرة والصغيرة اليوم . باذلة أقصى ما يمكن من جهد ودأب ، للحاق بركب المدنية والحضارة الانسانية .

وفي الواقع ان مشكلة التعريب هذه ، تتبدى بتلك (المصطلحات) التي تعانيها أكثر اللغات العالمية الاخرى ، وليست اللغة العربية على وجه التخصيص ، كاللغة اللاتينية ، واليونانية ، والانكليزية ، والفرنسية ، والالمانية : وبصورة خاصة اللاتينية واليونانية . فاللغة الانكليزية مثلا لديها طريقة متبعة تلجأ اليها عندما تود أن تضع مصطلحا جديدا لمخترع جديد وجد فجأة ، هذه الطريقة هي ماتسمى (بالتركيب المزجي) ، وهو عبارة عن كلمتين أو أكثر لهما مدلول مزجي يعطي المعنى لذلك ، وهي عملية ليست سهلة بحال ، فقد يكون هذا المزيج من عدة لغات مختلفة عن اللغة الانكليزية الاصيلة ، أو عن اللغة اللاتينية واليونانية مثلا ، وقد يكون من احداهن . كل هذا توطئة نريد أن توصلنا الى تعريف المصلح نفسه ، لندرس على ضوء ذلك مايهمنا في اللغة العربية . فالمصطلح اما أن يكون مأخوذا ، دون أن يشابه أية كلمة أخرى أو ان يكون وصفا دقيقا ، ولكن له صفة جديدة أو صيغة مغايرة لمعنى آخر يمكن أن يشابهه بحيث مجرد ذكر المصطلح يدل على ما يعني به المرء بالذات .

واللغة العربية بالذات تعاني من مثل هذه المشكلة أشد معاناة . لانها لاتستطيع أن تستوعب مثل هذا المزيج الدخيل . حتى وان ظهرت مثل هذه الحركة العابرة قوبلت بالاحتقار والهجوم وبالازدراء أخيرا . ولو سلمنا بوجودها فانها تستعمل حيث توجد ، ولا تخرج خارج هذا النطاق الضيق . فهناك بعض الاساتذة في البلاد العربية لجأوا الى دمج بين ـ جغرافيا أوروبا ـ بكلمة ـ جغروبيا ـ . والمشكلة هنا هل يضيرنا أو يضير اللغة بالذات من استعمال هذا التركيب المختصر ! . فاللغة الالمانية مثلا بعكس اللغات الاخرى وأعني بالاوروبية خاصة ، متشددة كثيرا على لغتها ، بحيث ترفض أي مزيج خارج نطاق لغتها . وهذا مانصادفه فعلا عندنا ، فنحن نستعمل كلمة (تلفون ، وراديو ، وتلفزيون) في كل مكان ، ولكن لو ذهبنا الى أي مكان يوجد فيه الهاتف ، وقلنا للمسؤول : « أريد الهاتف » لاجاب « هل تريد التلفون » ، مع ان كلمة الهاتف مستعملة قليلا جدا من قبل الخاصة . وكذا عندما نستعمل كلمة المذياع بدلا من الراديو ، والرائي بدلا من التلفزيون ، والماشط بدلا من صانع الماكياج ، والموتور بدلا من الدراجة النارية ، واللمبة بدلا من المصباح .. والروزنامة بدلا من التقويم الشهري واليومي ، الى غير ذلك من الكلمات الكثيرة .

ففي الحقيقة يصعب جدا علينا ، أن ننتزع مثل هذه التعابير من وجودنا بسبب :

أولا : لانها غدت وسيلة من وسائل التفاهم .

ثانيا : الصعوبة في عملية المزج في لغتنا كما قلنا (قرون وسطى ـ قروسطى) . سواء كان هذا المزج من صلب اللغة أو من غيرها .

ثالثا : حالات التخلف عندنا ، ولعل هذا السبب من أهم الاسباب التي تواجه مجتمعنا المتطلع الى آفاق جديدة ، والقضاء على التخلف ، يسهل بالتالي التقليل من أهمية الاسباب الاخرى . لما يفرضه على البيئة من ازدهار ورقي ، فتتجلى ثماره يانعة على مقومات اللغة وانعتاقها المطرد . فان دولة كبيرة مثل ألمانيا ، وانكلترا تصادف كل يوم أختراعا جديدا ، يتحتم عليها ـ بالضرورة ـ أن تجد اسما له ، وهي حرة في هذا الاختيار ، فتصدر الكلمات في قالب الاختراعات دون

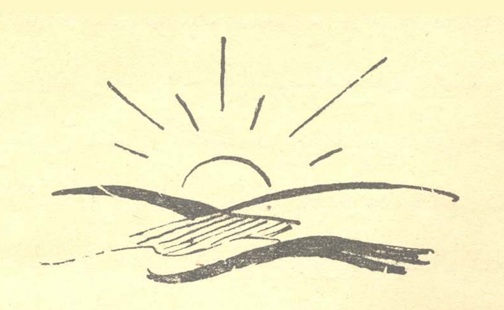
الحاجة الى الاستيراد اللغوي في أكثر الحالات . وبالتالي هذا الاسم الجديد للمخترع لايهمها مطلقا مصدره بقدر ما يهمها الصيغة التي يتألف منها بحيث يعطي المعنى المطابق لها والمناسب ، أي الشيء نفسه خاليا من الاشكال أو اللبس . حتى ولو جد هذا اللبس فيجب نأ يكون في الحالة الادنى . مثال ذلك كلمتا AIR-SHIP ومعناها المنطاد و AIR-WAVE ومعناها موجة هوائية .

على أننا نعتقد ، أو نجزم في أكثر حالات اعتقادنا ، أن هذا المصطلح الذي يتحدث عنه ، قد كان موجودا في اللغة العربية منذ القديم . وأسدل عليه ستار الخفاء لاسباب سياسية ، واقتصادية أو اجتماعية ، أو تبعا لمآل الحكم والسلطة وتغيرها حيث تمسك أيد قوية تارة ، أو ضعيفة هزيلة تارة أخرى ، مما يؤدي الى ارتفاع أو انخفاض هذه المجالات (الاقتصادية والاجتماعية والسياسية) وفق نظرة الحاكم أو رؤيته الاشياء في واقعه المتغير . والسؤال هو هل يجوز لنا أن نستعمل كلمة — تلفن يتلفن تلفنة — بمعنى خاطب بالتلفون مع أن الكلمة من الدخيل ، وعندنا في لغتنا المعطاء ما يقابل هذا (الهاتف : من يسمع صوته ولايرى شخصه) وكذا (التلسكوب وعربيها المرقب) .

نحن لانقول ، انه يتوجب علينا أن نتوسع بسماح مثل هذه الاستعمالات ، ولكن نقر اذا كان لابد مما ليس منه بد ، وبعبارة أخرى اذا فرضت مثل هذه التعابير الدخيلة شخصيتها وكيانها ، بحيث لايمكن انتزاعها — على الاقل — من الاقوال ومن اللغة العادية المتداولة على أوسع نطاق . فجدير بنا عندئذ أن نلجأ الى طريقة مجدية في استيعاب مثل هذه المصطلحات ، وذلك بأن نأخذ باستعمال ما يقوله النجار ضمن نطاق صنعته ، والحداد ضمن نطاق صنعته الخ .. ، حيث اننا في استعمالنا تلك الاصطلاحات لانكون قد خرجنا على المألوف بل أتينا بما يتفق مع فهم النجار أو الحداد على حد سواء ، دون اللجوء الى التحريف ، مدللين ، بصورة أكيدة ، على مصدر الكلمة ومنبعها فنضع بجانب كل كلمة مستحدثة أصلها الفارسي أو الهندي . واذا سلمنا جدلا بأننا بحاجة الى مثل هذه الاستعمالات ، لانها تواكب حياتنا العادية أكثر من غيرها ، والاسراع في حل عقدتها تمشي أكيد لروح المدنية والسهولة ، فاننا نقول ما شاع منها وعرف يمكن بقاؤه ، ان لم نقل أنه فرض علينا هذا الامكان ، منوهين أخيرا أنه بمقابل ما تسرب الى لغتنا من كلمات دخيلة ، هناك مئات الكلمات العربية أي بما يساوي عشرات المرات دخلت أيضا الى لغات أخرى مجاورة أو غير مجاورة على مر الايام . وان ايجاد الوحدة العربية الشاملة ، التي تؤدي الى نتائج رائعة في كل الحالات ، وخاصة من حيث دراسة مشكلة التعريب وتقريب الوجهات في هذا الشأن ، وانتصار البلاد العربية في المجال الاقتصادي ، وتحقيق الصناعات المصطبغة بطابعنا ، والقضاء على التخلف بكل معانيه ، كل هذا يوفر لنا اعطاء صناعاتنا الاسماء المناسبة ، ومن ثم تصديرها الى كافة أرجاء العالم . وهذا لعمري ليس بالامر الهين ! زيادة على أن البلاد العربية تشهد اليوم ثورة على قوى حياتها ، وطفرات تسابق الزمن نفسه . كذلك فان اللغة العربية ، بغناها وعمقها الذي هو أعمق من الحياة نفسها ، كفيلة أن تستقطب كل ما يجري في العصور ، من حقيقة ومن مجاز .

دريد الخواجة





غابة السناء لو تتفتح في قلبي الكئيب .. كعيون قديس حنون .. كصلاة حنون .. قرص الصفاء لو يضج في صدري المكدود كبيدر أبيض تفتح في عز الربيع .. ولكن ما تفيد لو ..

لعنة الابد وشم غجري يعربد على الجبـاه .. والفشل ابدا تقرع اسماعي وقع حوافر جياد مركبته المزينة بقلوب تهرهر رائحة الدم .. الـذي تبكي قطراته مرفأً عسلية .. وقراً خضر .

. . .

العيد اتى ينثر الفرحة على النـاس .. فرحـة العيد تزغرد في عينيـك الخضراوين .. شحارير السعادة تغفو على انسام انفاسك التولوبية .. آمال وأحلام أبيض .. كعنقود من حمام ابيض ضل طريق العودة لاوكاره .. ترقد في وزايا قلبك الصغير .. الابيض ..

غدا العيد يا ولدي ..

لا بد انك رسمت « برنامجك » سترتدي بذلتك الجديدة .. وتختال بها كالطاووس بـين رفاقك.. الذين سيفتحون افواههم دهشـة .. وفي عيونهم تنشج أقمار رغبة ماسيـة للحصـول على مثلها .

ويتساءلون بحرقة ..

« من اين لك هذه .. ؟

وانت ابن فقير يستدر عطف الناس ..

من اين لك هذه ؟..

وقد عرفناك لا تلبس الا القديم .. وما يجود به المحسنون لوالدك ..»

لكنك لن تأبه لنظراتهم .. التي تنهرق عليـك ممزوجة بالحسد والغيرة .. وتختـال كالطاووس بينهم ..

العيد غدا يا ولدي ..

وقع خطاه يقرع أذني ..

وغدنا غـراب وجهه رفض واستياء عـار .. يرجمنا بالحزن .. والحسرة . لاننا حفنة زائدة عن اللزوم .. بلا تاريخ نحن .. بلا حب .. بلا اشواق نعبر .. بلا إله ، أو نجد .. نحن شهقة أحتضار .. البوار في عيوننا حشرجة جوفاء .. لعنة مكتوبة على أجنحة الجراد ..

أقمارنا هجينة بلا نور .. مطفأة نجومنـا بلا بريق منير .

الغد يا ولدي للاصنام المتحركة .. وسـط

الضجيج والالوان .. وليس لنا نحن الذين تقيأتنا الحياة ..

ولكنك صغير لا تفقه ما أقول .

. . .

غدا ينبع صباح حزين ..

وترشقني بقافلة من نظرات مسعورة الخطى .. تدحرج قرون البؤس والشقاء في قلبي .. وتبقى في دمي .. وتبكي جراحي دمعا أسود .. قد من أنفاس ليل كانوني أصم .. يحبل كل ما حولي الى أسود .. يغرق دنياي بفيضان أسود .. يشعل النيران في بيادر النجوم . . ويشحبر افقي بالسواد .. حينما تدرك أن آمالك .. وأحلامك .. قد انطفئت مع اول قذيفة مدفع تصحو معها .

. . .

ستبكي بحرقة ..

وتنزوي وحدك كقط أليف ضربه صاحبه .. في زاوية من زوايا الدار العارية من الاصباغ والالوان.

بينما تعبر أليك من شبابيكها التي أضاءت يوم ولادتها .. مواكب زقزقة الصغار . التي تدفء أضلاع العيد الباسم .. الذي حمل اليهم في جيوبه الفرحة .. والسعادة .. والحلوى .. والثوب الجديد .

سيغريك صياحهم الطفولي .. العطر .. الذي يتأرجح في شعافة حوريات السعادة .. وتتهادى على أهدابك حداء دمع حار . . وانين حسرة مكتومة الانفاس .. ويتعربش فؤادك حب لزج الانامل .. في النظر اليهم .

حتما ستراهم يتدافعون .. يتزاحمون بالمناكب .. ببراءة اطفال خضر العيون هبطوا القمر .. حول ارجوحة « ابو سعيد » المصلوبة بجوار بيتنا الذي تاه الربيع فيه .

وتود لو تشاركهم لعبهم .. وحبورهم ..
لكن الغيمة الغافية في داخلك .. الذي أزهر فيه جدب دائم الربيع .. دائم الاخضرار ... دائم الاعراس .. تبكي ...

وتعود الى واقعك المر .. المؤلم .. حينما تعلم أن والدك . . خدعك .. كذب عليك .

قال : « سأشتري لك بذلة جديدة .. جميلة ».
تفاخر بها كل رفاقك يوم العيد » .

وتود لو تعمل شيئا .. أي شيء فقط يريحك مما أنت فيه .. ينتشلك ولو ثوان من واقعك المؤلم .. الذي تنتحب فيه أمانيك الغضة .. كأنفاس النجوم العاشقة .. للشطآن النحاسية .. ولكنك لا تفعل أكثر من ان تبكي .

أجل تبكي بحرقة .. بصدق .. نبع من اعماق اعماقك .. من وجدانك .

وتتساءل بلوعة :

« ماذا جنيت ليكون هذا جزائي ..؟

أي خطأ ارتكبت ..؟

اني لم أفقأ عين الشمس .. أو ألطخ بالوحل وجه القمر ..»

. . .

ولدي ..

ولدي ..

والحزن مخلب جارح يزرع الالم في كيأبي ..
إله شرير يلون أيامي بالتعاسة .. والعذاب .. والحرمان .

عبثـا حاولت أن اشتري لك فرحة في العيد .

عملت المستحيل يا ولدي .. لكنني أبدا ارتد .. وروح الظلام تقهقه حولي منحت الدمع ئلاله .. توسلت اليه .. جثوت عند اقدامه .. لكنه عزف عني وتعامى .

وأعود الى التيـه المضني .. أبحث عن غيمـة حبلى بالخير .. والفرح .. لكن الصقيع كفن دربي .. والبؤس أحاط بأعماقي .

قررت أن اتمرد .

أن أمزق أنجيل اللعنة .. وأشعل النار في بيادر النجوم .. أن أحرق أجنحة القدر الرهيب .. لكن جوادي كبا .. وأضحى عـذابي أقسى من عـذاب أرض بلا مطر ..

وراح الحزن يقرع صدري بسياط تمطر الالم في أضلاعي .. وأود أن أبكي .. لكن دمعي يصلب .. يختنق ... يغرق في أبحر من الظمأ الازرق .. فتتعالى انفاسي حارة لاهبة ، يبكي فيها جوع مدمـر للمطر .. لغيمة بيضاء يمتطي ظهرها فارس اخضـر العيون .. أزهر الجوري في وجنتيه .. وعلى خده نما الزنبق .

لنبع تزغرد قطراته الفضية برخامة نجوم شقر .

. . .

وأشوه وجه المستحيل ..

أحاول أن أزرع الفرحة في حقول عمرك .. التي لم تعرف الفرحة .. بالكلام المنمق .. وهو كل ما أملك . وما كنت أدري ـ أقسم بعمرك ـ انني كنت أخدعك .. أكذب عليك ..

أبدا ما لونت هذه الافكار ذهني .. كل غايتي كانت جلب السعادة لك .. مهما كلف الثمـن .. مهما كان غاليـا .. وباهظا .

الان فقط تنبهت .. العيد غدا ..

وغدا تعلم .. تعلم أنني كنت أخدعك . ستظن والدك كذاب .. خدع الكثيرين كما خدعـك .. ممثل بارع يجيد أدواره .. يتقنها ببراعة لا تـدع للشك مجالا .

ولكن ثق يا ولدي انني لست مخادعـا .. أو كاذبا .. لا ، ولا ممثلا بارعا .. انني أبيع عمري في سبيل الحصول على فرحة تغازل صدرك المهترىء من الحزن .. لثوب جديد .. أو رغيف خبز بلون الشمس ..

ولكن ما تفيد لو ..

نحن حفنة من الناس زائدة عن اللزوم ..

والعيد لا يحمل في جيوبه لنا سوى الدمـع .. والآهة .. والحسرة ..

ولكنك صغير لا تفقه ما أقول .. يا صغيري ..
يا برعما لـون حياتي بالسعـادة .. ونعمهـا بالتعاسة والشقاء .

ونظراتك ..

غدا نظراتك سترجمني بحجارة من سجيل .. فأبحث عن جسر للعبور .. عن منقذ .. لكن نظراتك تغرس مدية رعب قاتل .. يرقص على ذبابتها ألـم مشلول .. في قلبي المتعب .. الذي يندب حظـه العاثر .. فألوك وحدي ألما بلا لون .

يا ولـدي ..

سوريا ـ الرقة

خليل جاسم الحميدي

البلبل العاشق

* شعر : فرينا انطونيوس

تعالي تفتّح زهر الرُّبى   وعرّش في روضتي الياسمين
وماست دلالاً على غصنها   وورود ترّحب بالعاشقين
وفي روضتي زنبقات طوال   تتيه اختيالاً وتعلي الجبين
ستغضي حياء إذا ما أتيت   وتخشع للحسن إذ تخطرين

وموسم جني ودفق هنا
وأكداس فلٍّ وفيض سنا
وبسط البنفسج والسندس
تموّج فيها شذا النرجس

تعالي أطرّز ثوبك مما   نما في رياضي وفيها انتشر
ومن خفق قلبي ومن ذكرياتي   ومن هدب عيني وشتى الصور
تعالي لأنسج من مقلتيك   وشاحاً يلوّن وجه القمر
فيغفو الوجود على خضرة   وأهفو إلى الموعد المنتظر

وشعرك يبغي النجوم سميرا
يرش العبير ويذكي السعيرا
دعيه على الكتفين وشاح
دعيه تعربد فيه الرياح

تعالي ففي روضتي بلبل يجرّح بالآه ألحانه
كسير الفؤاد مهيض الجناح يبثّ الليالي أشجانه
يروّي ابتساماته بالدموع ويرثي أليفاً له خانه
تعالي لنحمل للبلبل عزاء يهدهد أحزانه

دهته الخطوب وضاعت مناه
ومَن لهواه يغني سواه
فراح يغرّد للذكريات
ويندب حباً طواه الممات

* * *

غداً يامناي يجيء الخريف فيجني على روضتي الزاهره
وتعدو عليها سموم الرياح وتنثر أزهارها العاطره
وتعبث فيها أكف الخراب وتذوي زنابقها الطاهره
ويهبط ليل كثيف كثيف فلا بدر أو أنجم ساهره

ويجثم فوق هوانا الشقاء
فكيف نطيق مناي البقاء
فنهرع إذ ذاك إلى البلبل
نكفكف دمع الهوى الأول

* * *



صلاة الى الأرض الجديدة



شعر : سهيـل عجي

ونبحر
لكن ، الى أين ؟ أي بحار ؟!
تراود احلامنا الخامدة
تعانق خطواتنا الشاردة
وتحضن احلامنا الباردة
الى أين
واليأس يملأ أعماقنا !
ويمتصّ ، يمتصّ اعراقنا !
ويعتصر الحب من صدرنا ،
يرمّد حتى الحنين !
ويتركنا مع حطام السنين ،
حطاماً ، وحفنة رمل وطين !
الى أين ؟؟
واليأس يجلد أعمارنا ،
والثـواني !
ويغرقنا بالأسى والهوان !
ويرفع منا عواميد ملح ...
وجلجلة ... وصليبا !!
ويزرع في كل قلب لهيبا !..
الى أين ؟
واليأس صار جباها !
وصار فما وشفاها !
وصار إلهـا !

على قدميه نصلي !...
وديعين ! نتلو دعاءاتنا !
ونغرق بالدمع مأساتنا !
تعبنا !... تعبنا !...
وملّت من النير أعناقنا
وحنّت الى الضوء أحداقنا
مللنا رتابة أعمارنا ،
عبودية الصلب عبر السنين !...

* * *

أيا عالماً خزفيّ العيون !
على قدميه ... صلبنا ! ...
وبين يديه ... جلدنا ! ...
ونصلب ... نصلب في كل يوم
مرارا ! ...
ونجلد ... نجلد في كل يوم
مرارا !...
كرهناك ، يا عالماً وثنيّ الرؤى ،
والحنين ! ...
كرهنا مفازاتك المحبوبة
وأشباحك المرعبة ،
تطاردنا في جنون !
أما من مكان نؤوب اليه ،
باحلامنا المتعبة ؟!

دعوناك ! يا نوح هل تستجيب !؟
دعوناك ! ...
واليأس سد الدروب !
دعوناك ! ....
أغرق بطوفانك العالما !
وهيّا على الفلك ، عبر الميـاه ،
وحيدين نحمل سرّ الحياة !
نجوب البحار ... البحار القصية ...
نصارع حيتانها الجائعة ...
نلملم اصدافها الضائعة ...
ونغسل بالموج أحداقنا ...
وندفق باليم آثامنا ...
ونرجع للأرض ، شعبا جديدا !
لنبدعها من جديد
على مشتهى حلمنا !
بلا ملل أو رتابة !
وتتلو على مسمعي الاله الوليد ،
صلاة الخلاص ! ...
صلاة
الحياة
الجديدة !...

* * *

يوم مع ميخائيل نعيمة

فريد محما

— ١ —

قال لي ميخائيل نعيمه وهو يهز يدي : أهلا بك أهلا . أظن أن هذه هي المرة الاولى التي نلتقي بها في (الشخروب) . فأجبت ضاحكا : نعم . فلقد التقينا في المرات السابقة هناك ، في البيت ، في (بسكنتا) .

وقدم لي كرسيا هزازا من الحديد قائلا : هذا كرسيَّ المفضل ، أعتليه ساعات وأنا أنظر الى (صنين)، دون أن يعتريني الملال ، فاجلس عليه ، وقل لي رأيك فيما ترى .

فجلست على الكرسي باعتزاز ، وأخذت أنزه طرفي في جمال عظيم ، منذ قمة الطود الاشم البعيدة ، حتى الشخروب القريب . عن يساري الطريق الى الجبل ، وعن يميني صخور الشخروب المشهورة التي تحدث عنها كثيرا في كتبه ، والتي أوحت اليه بكثير من رموز (مرداد) وأفكاره .

وقلت بعد فترة صمت : يشعر الانسان هنا بمشاعر هي مزيج من الرهبة والخوف والحب ، ومع ذلك يحس بحنان غريب يمليه هذا السكون الوادع الرطب، يشعر بحنان نحو شجرة الكرز ، ونحو تلك الزهرة النابتة في جوف صخرة . بل انني لارى الحياة حتى في هذه الصخور الربد الضخمة .

فقال ميخائيل نعيمه على الفور ، وابتسامة رضى تعلو شفتيه : أنت على حق في ذلك . ان الانسان يشعر أنه جزء من هذه الطبيعة الجميلة والمهيبة معاً .

فقلت سعيداً بما أسمع : انني أحسن هنا أنني قريب من الله قريب .

— ٢ —

وأطرقنا صامتين لفترة طويلة ، ارتشفنا فيها القهوة ودخنا دخينتين . كان نعيمه ينظر الى الجبل بحنان سعيد ، وكنت أدير نظري في هذا المكان ، ثم ارنو الى أديبنا الكبير فأراه أحد هذه الاوابد التي تحيط بي .

وقطع نعيمة حبل الصمت قائلا : هل أتعبك الطريق ؟

— أتعبني حقا . ولكن شعور الانسان في هذا البيت بأنه بين أهله سرعان ما يبدد ذلكم التعب .

فابتسم وقال بحنان: أنت في بيتك حقا . وسنتناول طعام الغذاء معا . وستذوق نتاج الشخروب .

وهنا تعالت (ضربات جرن الكبة) ، واخذت تتجاوب أصداؤها في وادي الجماجم بتوقيع أساء الى سكون الكون حولنا ، ولكنه أحسن الى معدتينا اللتين بدأتا تنتظران الطعام المحبب .

— ٣ —

وقال نعيمة وهو يرفع صوته لاسمعه :

والآن هات حدثني عما لديك من أخبار أدبية .

قلت : يظهر أن الضجة حول كتاب (جبران) ، لم تنته بعد، على الرغم من مضي ثلث قرن على صدوره. أتانا هذا العام الى حلب محاضر من لبنان ، وألقى حديثا عن جبران مفكرا وشاعرا . ولما سئل بعيد المحاضرة عن رأيه في كتابكم عن (جبران) ، أجاب بأنه كتاب رائع ، ولكنه أساء الى جبران في تصويره بهذه الصورة المفرطة . في (أرضيتهما) .

فقاطعني نعيمة محتداً :

غريب أمر هؤلاء الناس يا أخي . لقد قلت دائماً :

ان هذا الكتاب أثر أدبي في (السيرة) تلاحم فيه الخيال والحقيقة تلاحماً عجيباً . انني لم أسيء الى جبران حين صورته انسانا فيه الخير والشر .

وسكت قليلا ، ثم قال بحدة :

—وأنت ؟ ألم تقل رأيي في الموضوع ؟

قلت : بلى قد فعلت . قلت للمحاضر والحاضرين:

إن نعيمة في كتابه لم يسيء الى اديبنا العظيم (جبران)، بل لعله على العكس قد أحسن اليه احسانا كبيراً ، حين أنزله من مرتبة الانبياء والآلهة — كما كان في نفوس الناس — ليعيش بشرا سويا بينهم .

فجبران انسان بكل معنى الكلمة .

فتساءل نعيمة :

وما كان رأي المحاضر الكبير فيما قلت ؟

— لم يغير كلامي من رأيه شيئا . لقد أزعج الناس تصويرك لجبران انسانا ، بينما هم يريدونه نبيا أو نصف إله .

وسكتنا فترة من الوقت بعدها :

— ٤ —

قالوا : انني خرجت عن الاصول والقواعد التي تعارف عليها النقاد في فن القصة . وهذا أمر عجيب ! يخلق الانسان القواعد والاصول (التي تكون جديدة في عهدها) ، ثم يقيد نفسه بها ، ويجعلها قيوداً وسلاسل ، يغل بها كل أديب يديه حين يكتب . من قال لهم : « ان هذه القواعد أبدية » ؟ وان على الادباء جميعا أن يراعوها ؟

— وأخذوا على الكتاب أن الواقع والخيال قد (اختلطا فيه اختلاطا عجيبا) كما قال أحدهم .

فقال نعيمة :

— اعترف بأن هذا الكتاب نمط في القصة غير مألوف ، فهو بكل ما فيه من أشخاص وأحداث خلق وابتكار . انه يجاري المألوف في نواح كثيرة ، ليعود فيسمو عنه في أخرى . ان الحياة يا أخي أوسع وأعجب وأعمق بكثير من أن نقيسها بذراع (الواقع) الذي ألفه الانسان بحواسه وفكره ، وفي حياته القصيرة الضيقة .

قلت :

— في الكتاب أصالة تتجلى في مضمونه وفي عرضه الفني ، وفي الافكار التي يقدمها . ولست أدري لماذا يجيزون للاديب في أوربا أن (يعبث) بقواعد القصة وفنيتها ؟ ثم يمنعون على أديب كبير — ذي اتجاه فكري كميخائيل نعيمة . أن يخرج على بعض هذه القيود ؟

وسكت فترة ثم أردفت :

— ان الاتجاه الذي يسمونه أدب الطليعة ، أو اللامعقول ، أو أدب العبث ، يلقى الترحيب الكبير في مجلاتنا وصحفنا ، تترجم آثاره ، وتكتب عنه الكتب والمقالات ، وينحو كثير من ادبائنا نحوه ٠

كتابك (اليوم الاخير) أثار أيضاً ضجة أخرى ٠ لقد قرأت الكثير مما كتب حوله ، وآلمني أن يقيس النقاد الروايات والقصص بمقياس واحد ٠

— ٥ —

فقال ميخائيل نعيمه بعد فترة صمت :

— مع أنه — كما يسمي نفسه — أدب (لامعقول)، عبث بمضمون الرواية والمسرحية والقصة وبفنيتها عبثا عجيبا ، ولقد بلغني أن لتوفيق الحكيم مسرحية تتبع هذا المذهب الادبي ٠

قلت : بل له مسرحيتان ، (ياطالع الشجرة ، وطعام لكل فم) ٠

فأشعل دخينة أخرى ثم قال :

— فهات رأيك في هاتين المسرحيتين ٠

— قبل هذا اسمح لي أن أقول رأيي في اللامعقول كله ، ثم نعرج بعد هذا على مسرحيتي توفيق الحكيم ٠

— يسرني سماع ذلك ٠

فقلت :

— مذهب (اللامعقول) مذهب أوربا التي أتخمت حضارة وفنا وأدبا ٠ ولما عجزت عن ايجاد حلول لمشاكل الكون والفكر في المعقول ، التمستها في اللامعقول على لسان هؤلاء الادباء الكبار حقا ٠ ان بعضهم أصيل فيما يكتب (كيونيسكو وبيكيت) ، نقرأ لهم فنشعر أنهم يريدون أن يقولوا شيئا لم يقل بعد ، شيئا يفهم على الرغم من (لامعقوليته) ٠ ولكن بينهم الكثيرين من الهجناء والمقلدين والصغار يهربون من الاصالة والعمق الى اللامعقول ، يدارون به مجهلهم وضعفهم ٠

قال ميخائيل نعيمة :

— اتفق معك في هذا وأقول للذين يدعون لهذا المذهب في أدبنا العربي : هل وصلنا الى المستوى الحضاري الذي وصلته أوربا حين ظهر هذا المذهب حتى نقلده ؟ وهل انتهى الاديب العربي حقا من تصوير المعقول في حياة الانسان العربي حتى يطير الى اللامعقول ؟

فقلت :

— هذا سؤال خطير ، والجواب عليه يكمن في تضاعيفه ٠ ان أدبنا الحديث لا يزال يرسم خطواته الاولى ، ولا تزال (حياة الانسان العربي) مملوءة بجوانب لم تمس حتى الآن ٠

— ٦ —

قال نعيمه :

— سأقرأ مسرحيتي توفيق الحكيم في أقرب فرصة ٠ وفي انتظار ذلك أحب أن أسمع رأيك فيهما ٠

قلت : بل نسمع رأي المؤلف الذي نثره في مقدمة لاحداهما ، وفي خاتمة للاخرى ، والذي يمكن تلخيصه في النقاط التالية :

١ — (يا طالع الشجرة) مسرحية تلاقى فيها الادب الشعبي ، بما أسماه (الادب الرسمي) ٠ انها كما يقول الحكيم : « وسيط سلام بين الاثنين » فعنوانها وفكرتها مأخوذان من أغنية شعبية تقول : « يا طالع

الشجرة ، هات لي معاك بقرة ، تحلب وتسقيني ، بالمعلقة الصيني ... »

٢ ـ في رأي الحكيم أن في حياتنا وتفكيرنا لحظات يلتقي فيها المعقول باللامعقول ، والمسرحيتان فتح لباب جديد يصور هذه اللحظات ويجسم هذا التفكير .

٣ ـ في (يا طالع الشجرة) غموض (تجربة تداخل الزمان والمكان) وتخلخل المنطق .

٤ ـ أما مسرحية (طعام لكل فم) فهي واضحة كل الوضوح ، وفيها موضوعان متعانقان تخرج منهما في النهاية ضفيرة واحدة .

٥ ـ استعمل الحكيم في المسرحيتين اللغة الفصحى باعتبار أن (لا واقعيتهما) تطلب لغة غير واقعية أيضا ، أي غير عادية . انهما كتبتا (باللغة الثالثة) ، وهي لغة ارتفعت عن العامية واقتربت من الفصحى فهي بينهما (١) .

ـ ٧ ـ

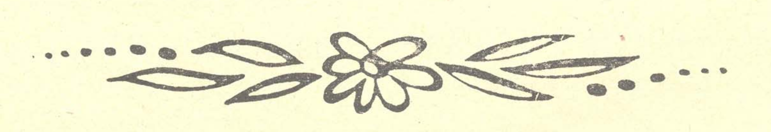
وما كدت انتهي من هذه الجملة حتى أقبلت علينا السيدة قرينة (نجيب) شقيق نعيمه تدعونا الى الطعام .

وقمنا الى المائدة التي مدت قربنا في ظل سنديانة عتيقة . كان الطعام لذيذا جدا ، وأكثر مواده الاولية من نتاج الشخروب ، لذلك تحس فيه نكهة خاصة لعلها أثر من آثار هذا المكان الجميل .

على الطعام وبعده ، كان حديثنا رخياً بسيطاً وعذبا مع ذلك . وما إن شارفت الساعة الثالثة حتى ودعت صديقي نعيمه وداعا حارا شاكرا له هذا اليوم الممتع .

وعندما عبرت بي السيارة الجسر المقام على (وادي الجماجم) ألقيت على (صنين) نظرة أخيرة، خيل إليّ عندئذ أن (نعيمه) يقف الى جانبه طوداً آخر ، في عينيه نظرة حنان ، وفوق شفتيه ابتسامة هادئة عذبة .

فريد جحا



(١) روح هذه الآراء قبلت في حديثي مع نعيمه ،وان كان قد طرأ عليها شيء من الترتيب حين كتب هذا المقال ، بعد نظر في مقدمة توفيق الحكيم المسرحية (يا طالع الشجرة) وخاتمة (طعام لكل فم) .



انسانة

« لقد تحررت من حب الحيـاة الجارف وحطمت اغلال الخوف ، وأطفأت نور الامل ..

الحمد لله الذي لم يجعل الحياة خالدة وجعل في الموت النهاية المطلقة ..

ان النهر المجهـد المضني مهما كان سيره بطيئـا ينتهي اخيرا بالوصول الى البحر .. !! » .

النهر المجهد المضني .. انني ذلك النهر المجهـد المضني وسأذهب بوداعة وهدوء الى البحر ..

البحر الذي احبه كل الحب . البحر الـذي يوشوشني .. يناديني ، يشتاقني .

ما اروع ذلك اللقاء واقساه عندما يضمني بين ذراعيه ، وارتاح في قلبه الكبير .. واحتمي بصدره الرحب الحاني .. فأخلد الى النهايـة المطلقـة .. وأتخلص من روح اسيرة تمردها وكبريائها.. وأفكار حبيسة اضطرابها وتشوشها وآمال عاجزة عن التحرك .. وجسد مرهف عليه ان يتحمل كل هذا .

* * *

وانت ايها الحبيب كن كما تشاء واقسو ما يحلو لك ، واستهتر بي كمـا تريـد .. ضعني في مؤخرة أعمالك .. بل على هامش حياتك ، صب علي كل ما تعرف من نعوت ، حطم كأسي ، واهجر عطري فأنا احبك واعبدك ، واعبـد الشارع الذي تطـأه قدماك ، والهـواء تعب منه انفاسـك .. وايامي ملكك وحياتي رهن اشارتك . واني راضية بهـذا ولا أريد تبديله ، اني احبك واعيش حبي غنيـا رائعا دافئا شقيـا .. انه بالنسبة لي الحياة ونهايته تعني نهايتي ..

قطعت كل علاقة لي بالحياة وربطتها بحبي ، هذا انا ولن اتبدل .. لا لن اشوه وجه حبي العابد بسوء تصرفك وباصطناعك مواقف لا تؤمن بها انت وتظن انها لمصلحتي .

انك تدفعني الى امور اعرف أن فيها حتفي..فلن استمع اليك .. تريدني ان احيا على هامش الحياة وان اهدم هيكلا اجد سعادتي في ظل ظله .. لا انـك واهم ايها الحبيب لن ارتمي بحضن القلق ثانية ... لن اعود الى هاوية ذرفت دموعا غطت الارض لخلاصي من لعنتها .. لا ايها الحبيب .

اني لا اطلب منك شيئا .. لقد أطفأت نور الامل .. الامل الذي ما عرفته وكيف اعرفه وانا لا غد لي ولا مستقبل ..

كما حطمت أغـلال الخوف .. الخـوف بكل الوانه وصوره وخلصت قلبي من ادرانه وأملائـه

همسة حلوة

انه بعيد بعيد . بعيد وهو قربي ..

لن أراه في بيتي . ولن يحتويه مقعدي ويضمه ضوءي ، لن يتأمل شجرتي ويداعب شلالي .. لن يسكره خمري ويتنشي بعبيري ، لن يلملم كلماتي ويحنو على نداءاتي .. لن تتهادى سعادتي بين يديه وينساب وجود عبر ناظريه ..

وانا لن انتشي بغير خمره ، واعرف دربا غير دربه ولا عبيرا غير عبيره ولا حبا غير الركوع في محرابه ..

انه انساني وحبيبي ، ارقبه مع كل نجم واسمعه مع كل لحن واضمه مع كل حلم ..

انه دنياي الفسيحة الملآى بالحب والحنان والملونة بألف سحر وخيال والعبقة بالشوق والجمال .

تشتاق عيناي عناق نظراته ، ويهفو كياني الى دفء حنانه ، ويصخب قلبي لحبه وانطلاقه ..

ليبعد من دربي وينكر حبي ويحطم كأسي ويعاف عطري .. فاني احبه ولا املك غير عبادته .

فحبي له يتحدى الزمان والمكان وعبادته امنيتي في الحياة .

خالدة

حبا وحنانا ويا له من امتلاء يعدل الدنيا وما فيها من اوهام وزيف .

ما اسعد من يملأ قلبه حبا ويتحدى به الارض والسماء ..

قد تكون حياتي ايها الغالي مريرة قاسية مرحة عميقة ، لكنها حياتي انا ، وقدري الذي أنا خلقته.. ربما كان بتمرد قدري حياتي ..

وربما عجزت يوما عن تحمله فأذهب واياه وانهي مهزلة حياتي .

فأرجوك ايها الحبيب ارجوك من قلبي الذي يعبدك الا تشفق علي .. تصرف كما تريد وتحكم بما تملك .. اطلب حياتي اقدمها لك .. أيملك العبد حياته.. لا وانا ألست عبدتك وعابدتك.. اقذفني بعيدا فارقبك ، ابعدني من دربك فاعود اليك .. افعل بي ما تريد فلا اقول لك لا ..

اما حبي فدعه لي ، لا تتحدث عنه فهو ملكي انا ولن افرط به انه حبي انا نسجته من خيوط الليل ورعيته بالدفء والتفاهم واللقاء ..

حبي الذي عاش النظرة الراعشة واللمسة الحانية والكلمة الصامتة وعرف ظلال النور وتموج العمر.

حبي سأنتهي وهو في غور ذاتي ..

فالنهر المجهد المضني مهما كان سيره بطيئا ينتهي اخيرا بالوصول الى البحر ...

ولكني لا لن انتهي وعندي امل في سماع صوتك والمرور بشارع يحضن عطرك .

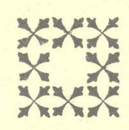
ـ انسانة ـ

الحبّ والطفولة

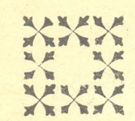
* شعر: احمد يوسف احمد

معي من أقاصي الشمال •
لعينيك دفء اخضرار الحقول •
صلاة الربى والتلال •
وخفق الجناح الصغير •
وبوح الظلال •
حملت معي من أقاصي الشمال •
حكايا الزمان البعيد :
« مراكب ترتاد ــ خلف الظنون ــ •
شواطىء تحلم بالمبحرين ••!
محملة بالهوى والفتون •
وبالخمر والارجوان •
وآلهة يشربون ••
رحيق الألوهة عبر السنين •
ويحترقون فما يرتوون •
وتعبر ملء الزمان •• حكاياتهم في ابتهال » •
سأطوي الدهور الطوال ! وأمضي مع الراحلين !
لأكتب ــ ملء العصور ــ حكاياتنا للصغار ••
فهل تبسمين ؟؟
يلوح الصباح الجديد •
يحدق بي من بعيد •
أحس بخفق النداء ، يدق رحاب المدى والعراء •
وأسمع همهمة الخالدين •
فهل تبسمين ؟؟
معي نسمة من عبير •
وآلهة يرقصون •
ويحترقون وما يرتوون •
وأعياد خصب تدور •
عليها ينام الصغار •• وملء الوسائد همس العصور
ودفء الهوى والجمال •!!
ضعي فوق صدري يديك •• سيغدو الزمان الوليد
حياة بلا متعبين •
وعمراً بلا تائهين •
ويجدل كل هوى تاج غار •
وأرجع يوماً إليك •• بطولة عصر جديد •
هوانا وراء الزمان •
خلود وحب وعيد •
حكايا تنام الحقول على دفئها والتلال

أحمد يوسف أحمد



تراثنـــا المـــاضي



جولتنا اليوم مع الاصفهاني في اغنى رحلة عرفها تاريخنا الادبي ..

رحلة يتمتع بها الانسان ويأنس ويطرب وتمضي الساعات والايام وهو غارق في الحكايا الطريفة والشعر الرائع والتعليقات النادرة .

لنحط الرحال عند ابن الدمينة (عبد الله بن عبيد الله) ترى كيف تزوج واية امرأة اختار ..

حدثنا ابن أبي السري بن هشام قال :

هوى ابن الدمينه امرأة من قومه يقال لها اميمة ، فهام بها مدة فلما وصلته تجنى عليها وجعل ينقطع عنها ، ثم زارها ذات يوم فتعاتبا طويلا ثم اقبلت عليه فقالت :

وانت الذي اخلفتني ما وعدتني
واشمت من كان فيك يلوم

وابرزتني للناس ثم تركتني
لهم غرضا أرمى وانت سليم

فلو ان قولا يكلم الجسم قد بدا
بجسمي من قول الوشاة كلوم

قال فأجابها :

وانت الذي قطعت قلبي مرارة
ومزقت قرح القلب فهو كليم

وانت التي احفظت قومي كلهم
بعيد الرضى داني الصدور كظيم

قال ثم تزوجها بعد ذلك وهي عنده ..

ولنسرد هذه الحادثة التي تدلنا على مدى طرب الآخرين بشعره :

« اخبرني يحيى بن علي قال حدثنا حماد بن اسحق قال : حدثني ابي قال ..

كان العباس بن الاحنف اذا سمع شيئا يستحسنه اطرفني به وافعل مثل ذلك فجاءني يوما فوقف بين البابين وانشد لابن الدمينه :

الا يا صبا نجد متى هجت من نجد
فقد زادني مسراك وجدا على وجد

ان هتفت ورقاء في رونق الضحى
على فنن غض النبات من الرند

بكيت كما يبكي الحزين صبابة
وذبت من الشوق المبرح الصد

بكيت كما يبكي الوليد ولم تكن
جزوعا وابديت الذي لم تكن تبدي

وقد زعموا ان المحب اذا دنا
يمل وان النأي يشفي من الوجد

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا
على ان قرب الدار خير من البعد

وزيد على ذلك بيت وهو :

ولكن قــرب الـدار ليس بنافـع
اذا كان من تهواه ليس بـذي ود

ثم ترنح ساعة ودبخ اخرى ثم قال :

انطح العمود برأسي من حسن هذا ؟

فقلت لا ارفق بنفسك .

ولنتمهل قليلا عند هذه الحادثة :

حدثني بعض اصدقائنا .. عن الاصمعي :

مررت بالكوفة واذا انا بجارية تطلع من جدار الى الطريق وفتى واقف وظهره الي وهو يقول لها : أسهر فيك وتنامين عني، وتضحكين مني وابكي، وتستريحين واتعب ، وامحضك المودة وتمرقينها لي ، واصدقك وتنافقيني ، ويأمرك عدوي بهجري فتطيعينه ، ويأمرني نصيحي بذلك فأعصيه . ثم تنفس واجهش باكيا . فقالت له : أن اهلي يمنعوني منك ونبهوني عنك ، فكيف اصنع ؟ فقال لها :

أطعت الآمــرين بصرم حبلي
مريهــم في أحبتهــم بــذاك

فــان طاوعـوك فطاوعيهــم
وان عاصوك فاعصي مـن عصـاك

امـا والرامضـات بكـل فـج
ومن صــلى بنعمـات الاراك

لقــد أضمرت حبـك في فـؤادي
وما أضمرت حبـا مـن سـواك

وقبل ان نودع ابن الدمينة لنستمع اليـه يتحدث عن أهله وعشيرته :

ان الـذي بيني وبـين بنـي ابـي
وبـين بنـي عمـي لمختلف جـدا

اذا اكلوا لحمـي وفـرت لحومهم
وان هدمـوا مجدي بنيت لهم مجدا

ولنترك ابن الدمينة ونرتاد احـدى ندوات اجدادنا ونتمتع بسمرهم ...

اخبرني احمد بن عبيـد بن عمار ..

كنا جلوسا عند صالح بن حسان فقال لنا اخبرني عمي .. عن المبرد قال :

قال لي صالح بن حسان .. انشدوني خفرا فـي أمرأة ظريفـة فقلنـا قول حاتم :

يضيء لهـا البيت الظليـل خصاصه
اذا هي يومـــا حاولت انتبسمـا

فقال : هذه من الاصنام ، اريد احسن من هذا . قلنـا : قول الاعشى :

كأن مشيتهـا من بيت جارتهـــا
مر السحابـة لا ريث ولا عجـــل

فقال : هذه خراجة ولاجـة كثيرة الاختـلاف . قلنـا : بيت ذي الرمه :

تنـوء بأخراهـا فلأيـا قيامهـا
وتمشي الهوينـا من قريب فتبهر

فقال : هذا ليس ما اردت ، انما وصف هـذه بالسمن ، وثقل البدن . فقلنا : ما عندنا شيء . فقال: قول ابي قيس بن الاسلت :

ويكرمهـا جاراتهـا فيزرنهـا
وتعتـل عن اتيانهـن فتعـذر

وليس لها ان تستهـين بجارة
ولكنهـا منهـن تحيـا وتخفـر

ولننتقل الى ندوة اخرى ولتكن في دار الخلافة .

قال اسحق : حضرت بدار الخليفة وحضر معي علي بن هشام ..

فقال لي : اتهجو أخي وتذكره ما بلغني من القبيح؟

فلقت : او يتعرض اخوك لي ويتوعدني ؟ فوالله ما ابالي بما يكون منه لاني اعلم انه لا يقدر بي على ضر، والنفع فلا اريده منه ، وانا شاعر مغني ، والله لاهجونه بما أفري به جلده ، وأهتك مروءته ثم لاغنين في أقبح ما أقوله فيه غناء تسري به الركبان . فقال لي : أو تهب

لي عرضه واصلح بينكما ؟ فقلت : ذاك البك ، وان فعلته فلك لا له . ففعل ذلك وفعلته به .

وقبل أن نودع الاغاني لنسترق السمع الى ندوة اجتمع فيها نخبة من الشعراء ..

أخبرني محمد بن القاسم الانباري ، حدثني أبي عن احمد بن عبيد قال :

اجتمع مسلم بن الوليد وابو النواس وابو الشيعي ودعبل في مجلس فقالوا : لينشد كل واحد منكم اجمل ما قاله من الشعر فاندفع رجل كان معهم فقال : اسمعوا مني اخبركم بما ينشد كل واحد منكم قبل ان ينشد . قالوا هات . فقال لمسلم : اما انت يا ابا الوليد فكأني بك قد انشدت :

اذا ما علت منا ذؤابة واحد
وان كان ذا حلم دعته الى الجهل

هل العيش الا ان نروح مع الصبا
ونغدو صريع الكأس والاعين النجل

قال : وبهذا البيت لقب صريع الغواني لقبه ابن الرشيد . فقال له مسلم : صدقت ثم اقبل على ابي نواس فقال له : كأني بك يا ابا علي قد انشدت :

لا تبك ليلى ولا تطرب الى هند
واشرب على الورد من حمراء كالورد

تسقيك من عينها خمرا ومن يدها
خمرا فما لك من سكرتين من بد

فقال له : صدقت ، ثم اقبل على دعبل فقال له : وانت يا ابا علي فكأني بك تنشد قولك :

أين الشباب وأية سلكا
لا ابن يطلب ضل بل هلكا

لا تعجبي يا سلم من رجل
ضحك المشيب برأسه فبكا

فقال : صدقت . ثم اقبل على ابي الشيعي فقال له : وانت يا ابا جعفر ، فكأني بك وقد انشدت وقلك :

لا تنكري صدي ولا اعراضي
ليس المقل عن الزمان براضي

فقال له : لا ما هذا اردت ان انشد ولا هذا بأجود شيء قلته .

قالوا : فانشدنا ما بدا لك . فانشدهم قوله :

وقف الهوى بي حيث انت فليس لي
متأخر عنه ولا متقدم

اجد الملامة في هواك لذيذة
حبا لذكراك فيلمني اللوم

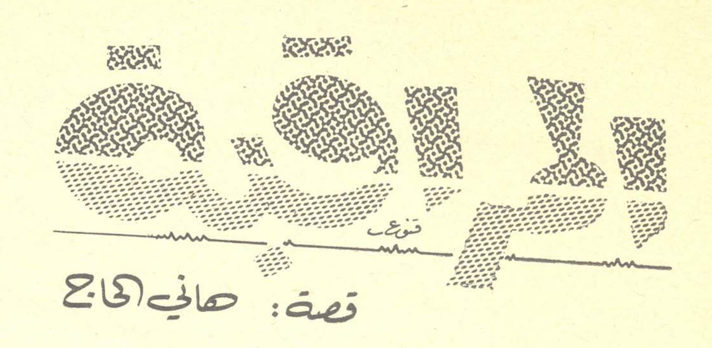
اشبهت أعدائي فصرت أحبهم
اذ كان حظي منك حظى منهم

وأهنتني فأهنت نفسي صاغرا
ما من يهون عليك ممن يكرم

وهكذا تنتهي رحلتنا الطريفة ولنا لقاءات ثانية مع الاصفهاني في أغانيه الرائعة .

التحرير





عندما يبقى طالب ما أكثر من نصف الوقت دون ان يكتب حرفا واحدا سوى لفترات قليلة على ورقة المسودة ، معنى ذلك ان هذا الطالب في مأزق .

فتمنيت .. تمنيت من كل قلبي ، أن يأخذ ورقته البيضاء فورا ويشرع بالكتابة بسرعة غريبة.. أو تمنيت لو أنه يحاول الكتابة .. مجرد محاولة فقط . أو يحاول أن يحيد عينيه عن عيني ولو قليلا ويفكر في سؤاله ... لكنه لم يفعل ..

نزلت عن المنصة قليلا ، وتجولت في أرجاء القاعة .. سرقت النظر اليه .. لا يزال مضربا عن الكتابة، وان كان قد امتنع عن مراقبتي .. لعل سبب ذلك انه لا يستطيع التلفت كثير كي لا يثير شكوكا حوله. عدت الى المنصة .. عادت عيناه تصالبان عيني :

ــ هل يعقل انه يتغزل بي ؟!..

أبعدت التفكير عن رأسي بسرعة :

ــ أنا مراقبة ..! !

عدت أتجول في القاعة .. لن اعود الى المنصة الرئيسية مطلقا ، ان نظراته الحادة أصبحت تحرجني .. وفطنت ، ان في القاعة سواه .. وانا مراقبة .

وبدأت أراقب ، نظرت الى طالبة كانت تنفرد بالمقعد الاول ، وقد ضبت اوراقها ، وادارت نصف جسمها نحو اليمين ، بشكل أولت به ظهرها للقاعة ، واعطت وجهها للحائط وشرعت تكتب .. تكتب ..

انها ذكية ، مثلي تماما في العام الماضي قبل أن اتخرج وأعين معيدة للكلية .. غير انني كنت ــ فيما اظن ــ أفتن منها بقليل ، وان كان يبدو انها تتمتع بشعر أسبل رائع .. وربما كنت أيضا ارفع ذوقا ... فستانها ليس جميلا كفاية .

كان الشاب الاسمر قد شرع يكتب ، وكانت الطالبة في قربه تحاول ان تهمس له ببضع كلمات .. انها تساعده ، غير انني لاحظت انه قد رفع ورقته بشكل واضح ، وبلا مبالاة ، حتى قرأت ما كتب ... اذن هو الذي يساعدها ..

تأملت الفتاة .. كانت جميلة .. عيناها ..؟ لم استطع ان اراهما تماما ، تقدمت خطوة : رائعتان .. شعرت بغصة في صدري .. أو في حلقي ، لا أدري تماما .. وقفت لحظة ، وسألت نفسي بجرأة :

ــ هل أحسدها ؟

لم أجد جوابا ، بل وجدت أن صيغة السؤال قد طرحت خطأ .. فصححت سؤالي ، وبصراحة تامة

تتناسب مع جامعية مثلي تؤمن بالعواطف وخلجات النفس:
ـ هل أريده ان يعود ويهتم بي .. وليس بها ؟

ها ... انني مراقبة وهو لا يزال على المقعد .

كانت الصبية لا تزال تسأل ، وكان هو يقطع كتابته ، بأريحية ، ليقدم لها ما تريد ..

وفطنت : انني مراقبة ... مراقبة .. أعني انني يجب ان اطردهما فورا من القاعة .. انهما يغشان ! !

بلعت ريقي ، واسترحت تماما ، لهذه النتيجة التي توصلت اليها .. وضببت يدي أمام صدري ورحت اتجول بالقاعة بهدوء ..

وصلت لقربهما ، ووقفت ، ألقى علي نظرة سريعة، ثم عاد الى ورقته ، ورفعها من طرفها ، واشار الى عبارة قرأتها الصبية بيسر ..

الوقح .. يستصغرني : انني مراقبة ..

ـ انت .. هنا ..

وأشرت له باصبعي بعصبية ...

ـ هذا آخر تنبيه ..

لم يحر جوابا ، تململ في مكانه ، ثم التفت اليها ... وابتسم .

أحسست بدوخة في رأسي ، وشعرت بشيء في قدمي ، فخيل لي انني يجب ان اجلس .. وعلى الطاولة الرئيسية بالذات .

صعدت الى الطاولة ، وحاولت ألا اعيرهما انتباها ..

راقبت القاعة ، كان الجميع مشغولين بالكتابة .. الوقت يسير بسرعة نحو النهاية ، وكل منهم يشعر بذلك .. الا هو ، فلم يكن يشعر بشيء الا بوجودها قربه .. وسأكون صريحة : أزعجني ذلك ..

عند اول بادرة منها سأطردها .. انها تغش ، وانا مراقبة ، ومن حقي .. من واجبي .. أن اطرد كل من يغش ..

وأخذت أراقبهما .. اصطفيت هذين الطالبين من القاعة كلها ورحت أراقبهما .. انهما أكبر طالبين مشاكسين ، وقد بقيا طيلة الامتحان يغشان ولذلك .. لذلك يجب ان يخرجا من القاعة فورا .. فورا ، وعند اول بادرة ..

الصبية لم تعد تأتي بحركة .. وهو .. هو وحده الذي كان يلتفت اليها ، يتأملها ، يتنهد ، يمصمص شفتيه ..

وشعرت بدوار .. بأشياء كثيرة تختلج في نفسي، تضطرب في دمي ، هببت عن الكرسي مذعورة ، وهرولت نحوه ، وأنا أشير اليه :

ـ هناك ..

لم يتكلم ، ورفع عينيه نحوي ..

ـ هذه ثاني ملاحظة ..

ـ هذا واضح ..

ـ سأرفع بك تقريرا ..

تنهد .. تكلم بصوت منخفض .. بخلجات رقيقة :

ـ ان عينيك تدلان على الوداعة .. (وأخذ نفسا) .. على الرحمة .

شعرت بالرحمة .. غير أن العيون جميعا كانت تحدق بي بشكل فضولي غريب ، وما كان لي أن أتراجع ، ما كان ذلك مطلقا .. ونظرت الى اوراقه، كان اغلبها منتهيا ، فمددت يدي ورفعتها وأنا اتصنع العنف :

ـ ستخرج من القاعة ..

لم يتكلم ..

وعدت حاملة الاوراق الى المنصة الرئيسية ، وخبطت يدي بعنف على المنصة وأنا القي الاوراق عليها ، فأحدثت صوتا قويا ارتج في انحاء القاعة ..

كان قد اغلق قلمه ، ثم توقف ، والقى نظرة علي .. راقبني من الاعلى الى الاسفل .. من الاسفل الى الاعلى ، وتوقف على عيني قليلا .. ثم بدأ يسير بخطى بطيئة نحو الباب ، وقد أطرق رأسه ، واحمرت وجنتاه خجلا ..

فأدرت وجهي الى الحائط ، لئلا يرى أحد ما هبط من عيني ...

هاني الحاج

طبيعة العاطفة الأدبية

عيسى فتوح

لا يشك أحد في ان العاطفة عنصر هام من عناصر العمل الادبي . بالاضافة الى الخيال والفكرة والاسلوب .. ووجودها في كل عمل ادبي شرط لازم لا يختلف عليه اثنان ، انما الاختلاف في طبيعة العاطفة ومقدارها ونوعيتها .. فثمة عواطف مائعة قلقة ، مضطربة ، صارخة ، عمياء . وثمة عواطف رصينة ، جدية ، واعية ، هادئة هدوء الموج في ايام الصحو ..

والسؤال الآن : أي النوعين افضل ، واقرب الى طبيعة العمل الادبي الصحيح ؟

ان العاطفة الادبية المتزنة هي التي يؤثرها النقاد ويطلبونها ، بعكس العاطفة المائعة التي لا تستطيع ان تتماسك او تقف على رجليها .. هي كالشمس المتوهجة التي تغشي البصر والآلام الكبيرة التي تحطم القلوب والاجسام .. العاطفة العنيفة تشل التفكير ، وتضعف التصور فلا يرجى منها في ميدان الأدب خير .. ومن المعروف ان العواطف الحادة العنيفة تحمل المعبرين بها على الاكثار من علاما تالتعجب والاستفهام والفواصل والنقاط الكثيرة ..

العاطفة الطبيعية لا تكون متسرعة ، ولا تستخدم من قبل النزعات السياسية والمذاهب الاقتصادية أو الدينية لئلا تصبح رخيصة ، تستعمل كمطية لبلوغ المآرب ، ومن هنا جاء عدم تقييمنا لشعر المدح الذي قاله اصحابه وهم يتمسحون بالاعتاب لقاء صلة رخيصة من مال او متاع .

اول ما يجب ان تتسم به العاطفة الصحيحة هو الايحاء ، ولذلك كانت الاثار الفنية اشد ايحاء من غيرها ، لتعدد المؤثرات التي تتضمنها . قابل بين صورة شمسية لاحد المناظر الطبيعية واخرى فنية للمنظر نفسه ، تجد ان الصورة الفنية أكثر اثارة لاحلامك ومتعتك وتفكيرك لتعقدها وتعدد المؤثرات فيها بما اضاف اليها الفنان من شخصيته ونظرته الخاصة .

ان الاشياء القديمة نبع من الايحاء لما لها من قدسية وهيبة ، وروعة وجلال ، لذلك يتلقاها الانسان وقلبه خائف وجل ، بعكس الاشياء الحديثة، وسبب ذلك ان الوحي يعتمد على الغموض[1] والماضي بطبيعته اكثر غموضا من الحاضر ، ومن هنا كان الكلاسيكيون واضحين صريحين اذ يخاطبون العقل الانساني خطابا مباشرا ، اما الرومانتيكيون فيكثرون من التلوين والتصوير لانهم كانوا اكثر اتصالا بالمتاحف والآثار والنقوش والفنون . وبالاجمال كلما ازداد الفن غموضا زادت فيه قوة الايحاء ، ولهذا كانت الموسيقى ايحاء صرفا لانها لا تقول شيئا بل توحي الى السامع مشاعر مختلفة ..

(١) النقد الجمالي لروز غريب ص ٨٨ .

والرمزيون عندما قرنوا الشعر بالموسيقى انما ارادوه ايحاء خالصا ، وجعلوا الغموض اهم ميزاته •

ثم يجب ان تكون العاطفة الادبية باقية الاثر ، ودائمة لا مؤقتة سريعة المفعول •• ولا يتيسر ذلك في العمل الادبي الا اذا كان فيه وحدة شعورية • فالقطع الشعرية التي لا تجمعها وحدة في الموضوع او الشعور تكون ذات متعة سريعة ولذة آنية ، نسمعها فنعجب بها ، ولكننا سرعان ما ننساها وننسى صورها التي مرت بخاطرنا مرور الحلم •• بعكس قصائد الغزل والاشعار الغنائية، فهي تتمتع بنصيب كبير من العاطفة يطربنا لحنها الشجي الذي يتصاعد من رنات مقاطعها وذكرياتها المثيرة •

والعاطفة الادبية سليمة ، صحيحة ، متزنة ، غير شاذة ولا منحرفة ، لان الادب فن والفن يأبى ان يكون رخيصا يباع ويشرى ، ويأبى أن يكون منحرفا مائعا ، فالعواطف التي تكون من باب الزفرات والتنهدات والآهات عواطف مائعة ، مريضة ، ليست من الفن في شيء ولذلك يقول الفيلسوف « كروتشي » ان التعبير العاطفي ليس من الشعر في شيء لان ميزته التأوه والتنهد ، والمبالغة ، والغلو العاطفي • وقد تسرع كروتشي ، فنفى ان تكون العاطفة من عناصر العمل الفني لان ، الفن في نظره انضباط ونظام ، والعاطفة تشويش واضطراب، وهو القائل: « لايمكن للشعر ان ينقل العاطفة او يقلدها لان العاطفة تشويش واضطراب والفن نظام وشكل » •

والواقع ان الشعر عكسا لما يقول كروتشي ، ينقل العاطفة نقلا ، يهدئها ولا يثيرها ، لان من طبيعة الفن ان يعدل العواطف ، ويظهرها في شكل الخيال والتصوير لا التأوه والتنهد ، ثم يسترها وراء براقع الايحاء والغموض •

ليست قيمة الفن في ان يهيج عواطفنا وينبه أحاسيسنا ، لان التأثر الشديد يجمد الخيال ويخرس التعبير ، ويحد من سيلان الذهن ، ويشغلنا لا باحاسيسنا عما سواها فحسب بل يشغلنا حتى عن وصفها والترجمة الصادقة عنها ، ولذلك كان الادب العاطفي الكثير الهوس والهياج ادبا رخيصا مبتذلا • ويعتقد سعيد عقل في مقدمة قصيدته « المجدلية » انه (لم يقم أثر فني أو عمل عظيم في حالة هياج ، فالفن نتيجة الهدوء وعمل لا واع) •

لعل خير ما يفصل في هذا الموضوع رأي دي غرامون ليبار • الذي ينظر الى العاطفة الادبية نظرة معتدلة ، فيرى انها لا بد أن تكون عنصرا من عناصر العمل الادبي ، ثم يشترط الا تكون مشوشة مضطربة ولا مائعة رخيصة ، وهو ينهي عن الغلو في خلق الصدف والمفاجآت في الادب القصصي العنيف ، ويلقي احكامه النقدية بهدوء وروية قائلا : « قد يحدث التأثر بصورة كلية ، دون ان يكون هذا التأثر لذة استاطيقية (جمالية) فالهياج النفسي اذا بلغ حدا ما قضى على اللذة ، وهو ما نراه في « المسرحية السوقية » التي تبالغ في عرض الفواجع والمفاجآت وفي الروايات البوليسية ،وسائر الادب الحاد العنيف الذي يجعل المشاركة الشعورية الما لشدة التأثر • ومن هذا النوع المهيج « رقصة

البطن » التي ، رغم براعتها ، تخلو من الفن ، ومشاهد عراك الثيران ، والمصارعات الدامية ، والالعاب الخطرة ومشاهد القتل والتعذيب المسرحي ، ومن الخطأ ان نقيس الجمال بمقدرته على اثارة العواطف

للعاطفة اذن حدود يجب الا نجتازها ، لانها باتساع المدى الانفعالي تقضي على اللذة الجمالية ، وربما احدثت انقباضا « كما رأينا في المسرحية السوقية » ونعرف لهذا اكثر من مثل في الحياة الانسانية ، فلو كنا نشاهد طفلا يغرق ، فاننا ، للوهلة الاولى ، نشارك والديه شعورهما اما بعد ان نرى جنون عاطفتهما ، وهياجهما فان الشعور الذي كان يخالجنا يضيع ، بل ربما تحول الشعور الى نوع آخر مغاير ، فتنقبض النفس وتتقزز لاسراف الابوين في اظهار عاطفتهما أكثر من الحد الطبيعي الذي يحتمل ان يديه والدان في مثل هذا الموقف ، ولذلك يخشى في التمثيل المسرحي اظهار التعذيب الوحشي من الممثل الذي لا يبغي الايلام ، بل امتاع المتفرجين فتضيع الغاية عليه .

ان المياعة في الادب كالمياعة في الفن تهبط بقيمته الى الحضيض ، فالكلمات الطنانة المبتذلة لا تستطيع ان تهب الاثر الفني قدرة على الخلود ، والمفروض في الادب ان يكون اساسه صحيحا لا باطلا او مزيفا . وما العواطف المائعة سوى اساس مزيف من اسس الادب . صحيح ان الاعجاب قاعدة من قواعد الفن ولكن الايثار الاعجاب احيانا من عرض العاب نارية ، او تنظيم الحوانيت في شارع من الشوارع ؟ بيد ان العاطفة التي من هذا النوع ليست عاطفة شعرية لان الاساس الذي بنيت عليه فاسد .. وانما العاطفة الشعرية في انعقاد الزهرة ثم تفتحها ، في ظهور هذه القوة الروحية التي تعمل في تكوين الزهرة ، وما في ذلك من جمال حي لا ينتهي معه الاعجاب .

المهم المياعة في العاطفة الادبية شيء مبتذل حتى ولو قصد منها صاحبها الاصلاح والتوجيه ولذلك كنا لا نرحب بالادب المتشائم ولا بالادب الزاهد لانه يقطع ما بين الانسان والحياة من صلات ، ويرينا الجانب الاسود من الدنيا ويعرض لنا مآسيها ، ويخلق عندنا نوعا من التبرم والنقمة ، مع ان الحياة ليست مأساة فقط ، بل هي ملهاة تتخللها اكثر ما تتخللها النظرات المشرقة .

ومن صفات العاطفة الادبية ان تكون متنوعة ، ذات مصادر واسعة شخصية كانت أم موضوعية .. فاذا رأى احدنا لوحة طبيعية فيها اشجار وصخور واشخاص وبيوت ، كان لا بد له ان يتساءل عن الدافع الذي حدا بالرسام الى اخراجها على هذا النسق .. واخيرا يعرف ان النسق الظاهر في اللوحة انما كان نتيجة لظروف الفنان الشخصية والعقلية ، حتى ليقول روسو : « ان اللوحة الواحدة تصور باشكال مختلفة تبعا لاختلاف الحالات الداخلية في نفوس الناظرين فتباين اوضاع الصورة من مرة لاخرى عند الشخص نفسه انما يعود للظروف التي احاطت به .. ونحن ايضا لو نظرنا الى لوحة اليوم ثم نظرنا اليها في الغد لكانت نظرتنا مغايرة كل التغاير ، ولأوحت لنا اللوحة غير ما اوحت بالامس ومن هنا جاء قولنا .. ان الفنان ابن ظروفه » .



قصة

شورتن اسكربي

سأل الميجر ، الملازم الذي دخل الخيمة :

ــ هل أعطى اية اشارة ؟

ــ لا . انه صامت ، لقد ضاع . اجاب الملازم بوجوم .

كان الذي يتحدثان عنه هو « علي » الذي لم يظهر له أي اثر منذ ثلاثة ايام . وكان جميع من في هذه الخيمة قلقين عليه . منذ ثلاثة ايام غادرهم ليتسلل الى ما وراء خطوط العدو ، ويرسل باللاسلكي تحركاتهم . وبسبب تأخره كان الجميع يظنون انه وقع في ايدي النازيين ، وأنهم يسومونه انواع العذاب لينتزعوا منه المعلومات . لذلك كان الصمت الثقيل والترقب القلق يخيم عليهم جميعا ، ولم يكن أحد ينبس بكلمة

ــ يا الهي .. هل قبضوا عليه حقيقة ؟ .. قال الملازم بهدوء :

ــ من المحتمل انهم ظفروا به ، والا كان اعطى ولو اشارة صغيرة للدلالة على مكانه . من يدري ! ربما يستنطقونه الان .. قال احد ضباط المدفعية الذي قام من مكانه وتنهد بعمق :

ــ لا يمكن ان نبت بشيء . من المحتمل ان يظهر ثانية ، لن يسلم علي نفسه للعدو بسهولة . قال الميجر .

كان الميجر الذي قال هذا يلف السجائر دون انقطاع .. وكلما أشعل واحدة اخذ يقضم طرفها بعصبية ينتهي منها بسرعة ويرميها ويلف واحدة اخرى . كان أمل جميع من في هذه الخيمة ، في عودة علي ، اصبح ضعيفا ، لكن تصور انه لم يعد حيا كان فوق طاقتهم .. فبقوا جالسين بانتظار ان تظهر اشارة من جهاز اللاسلكي ، وكانت الدقائق تمر بطيئة مثقلة بالترقب.

ــ ليس للبطولة عمر معين . هكذا بدأ الميجر الشاب الذي جعلته الحرب يبدو كهلا حديثه ليخفف من وطأة الانتظار . قال الميجر :

ــ كم مرة تستطيع ان تتسلل الى ما وراء خطوط العدو وتعود سالما ؟.. اربع مرات استطاع هذا الشاب الصغير .

ــ كان شابا طيبا . كان طيبا جدا . قال الحاضرون تابع الميجر حديثه وهو يلف سيجارة اخرى .

ــ التقيت به للمرة الاولى مغبرا جالسا على الطريق يبكي . اقتربت منه وسألته : « لماذا تبكي ايها الولد الطيب ؟ » ودون ان يجيبني مسح دموعه بكمه الممزق ورفع وجهه نحوي . كانت الدموع قد رسمت خطين نظيفين عبر وجهه الملوث بالتراب . وكان مظهره العام يدل على انه قطع مسافة طويلة ، فثيابه بالية وقذرة، وعيناه حمراوان متعبتان فيهما حزن عميق ..ولما لم يجبني على سؤالي الاول ، سألته مرة اخرى : « من اية عائلة انت ايها الصغير ؟ » وجلست الى جانبه . ودون ان يهتم لسؤالي الاخير ايضا ، تناول حذائيه الضخمين الملقيين امامه وقال: « هذان البشعان حطما قدمي ، لا استطيع ان اتابع سيري » والقى الحذائين جانبا وهو يظهر سخطا كبيرا عليهما . كان الحذاءان في الواقع ، كبيرين جدا حتى بالنسبة لقدمي .. وكان واضحا انهما ليسا له ، التقطت الحذائين

وسألته لاستدرجه :

ـ من اي عملاق اخذت هذين الحذائين ؟ هه .

ـ لم آخذهما من عملاق . ونظر الصبي الى الارض .

ـ ممن اذن ؟

ـ كان ابي قد تركهما فلبستهما .

ـ أين ابوك ؟

ـ في الحرب . مختصرا كلامه .

ـ وامك ؟.. عندما سألته عن امه صمت الصبي دقيقة ، ثم نظر الي دقيقة وقال :

ـ أمي ..؟ امي.. ولم يستطع ان يتم عبارته ، انفعل بشدة وامتلأت عيناه بالدموع ، ففهمت انه لم تعد له ام . لكنه اضاف بهدوء شديد :

ـ أمي قتلوها .. ألقوا عليها قنابل .

ـ الى اين انت تذهب اذن ؟ ألك اقارب في هذه الجهات ؟

ـ احتلوا قرانا وأصبح أقاربي تحت الاحتلال ، لو رأيت القنابل التي القوها ما اكثرها .. احرقوا مدرستنا الكبيرة ، كانت مؤلفة من ثلاثة طوابق ، كانت كبيرة جدا .

ـ لا .. لا .. لا .. وابديت اسفي على المدرسة حتى اكسب ثقة الصبي واستدرجه لمتابعة الحديث.

ـ تقاتل جنودنا مع العدو يومين كاملين من اجل قريتنا . ربما لا يزالون يتقاتلون للان ، أنا خفت من القنابل ورحلت ، اليست القنابل مخيفة حقا ؟ سألني الصبي جادا . وكانت فرقة المدفعية التي انا منها تمر ، فلما رآها الصبي أضاف :

ـ يابا .. يابا .. لماذا تغادر هذه المدافع ارض المعركة ؟ أتخاف مثلي من القنابل ؟ وبانتظار جوابي اضاف ثانية :

ـ لو كنا نملك هذه المدافع الكثيرة في قريتنا ، كنت المسؤول لو استطاع العدو ان يرمينا بالقنابل .

كان صديقي الصغير قد نسي ألم قدميه واخذ يستعيد نشاطه .

ـ حتى المدافع الكبيرة تخاف ! والذين يرمون بها يخافون ! .. كان واضحا انه يسخر بنا . اعجبتني شجاعته اللامتناهية رغم صغر سنه . اقول الحقيقة: كلما كان الصغير ينسى الامه ، كنت اشعر بمزيد من الراحة لاني تركت في البيت صبيا مثله . وكان العدو قد احتل قريتنا ايضا وانقطعت عنى اخبار عائلتي واهلي . بالاضافة الى ان مرآه ذكرني بكل الاطفال المشردين الذين بقوا بلا اب ولا ام ولا بيت ولا حماية . وقلت في نفسي : ربما ولدي الان ، جالس على الطريق في مكان ما وهو يشكو الم قدميه من حذائي . وفي هذه الاثناء وصلت مدافعنا الثقيلة البعيدة المدى . فلما رآها الصبي صاح :

ـ اووو .. ما اكبر هذه المدافع . لو كنت املك واحدا منها كنت المسؤول لو دخل العدو قريتنا .

ـ اما كنت تخاف ؟ سألته .

اذا كنت تملك سلاحا لاتخف من السلاح . كان ابي يردد لي هذا كثيرا . كان راعيا لولخوزيا ، وفي كل صيف كان يأخذني معه الى البراري فاحرس الغنم في الليل دون ان أخاف من الذئاب مهما اقتربت. مرة قتلت ببندقية والدي ذئبا دخل بين الاغنام .. نظر الصبي ألي ، ولما رآني ابتسم قليلا اضاف بسرعة :

ـ الا تصدق اني قتلت ذئبا ؟ اتظن اني لا أستطيع الاطلاق ببندقية . ليس ببندقية فقط ، لو كان عندي رشيش لاطلقت به .

ـ اتستطيع ان تطلق مدفعا ؟

ـ لم ار كيف يطلقونه ، لكن له صوتا عظيما . (فكر برهة واضاف) عندما يدربوني استطيع ان اطلق مدفعا ايضا .

ـ اتحب ان تصبح مدفعيا ؟

ـ بالتأكيد . قالها بسرعة وقد التمعت عيناه ..

كانت بطاريتي تمر ، رفعت الصبي واجلسته خلف احد المدافع وأوصيت به الجنود وانصرفت لشؤوني.

اخذ الميجر نفسا عميقا من سيجارته وتابع حديثه :

— تذكرون ان العام الاول من الحرب كان ثقيلا جدا علينا ، كان العدو يتقدم بقوات كبيرة جدا ، وكنا كل يوم ننقص من عدد دباباته وطائراته وجنوده ، لكن كان لا بد من اتخاذ خطة تراجعية ، كنا نتراجع لنتمركز في مواقع حصينة ونستدرجه لننزل به الخسائر الفادحة . وفي مساء اليوم التالي كنا قد تمركزنا على تلة عالية وانتهينا من حفر الخنادق وجلسنا بانتظار تقدم العدو حين تذكرت علي ، فأرسلت احد جنودي ليأتي به الى البطارية الثالثة ، وبعد ساعة دخل (البلوكوس) الذي أجلس فيه .

— كيف حال قدمك ؟ سألته بمودة .

— لم تعد تؤلمني ايها الرفيق الكابتن ، أجاب كجندي .

نظرت الى قدميه ، كان الرباط الطبي الابيض ظاهرا من داخل حذائه ، وكان يريح قدميه بالتناوب ، فوضح لي أن قدمه لم تشف تماما .. وأعجبت بصبره وقوة احتماله خصوصا وأنه ما يزال صبيا صغيرا .. ولاحظت أن منظره قد تغير ، فهو محاولة منه في تقليد الجنود ، شد وسطه بحبل من القنب بدل الحزام الجلدي فوق قميصه الذي أدخله بعناية الى بنطاله . كان بمجموعه يوحي أنه يقول : «ألست أنا أيضا رجلا؟» ولما كنت قد نسيت في المرة الاولى أن أسأله عن اسمه سألته :

— ما اسمك ؟

— علي قارون . كنت نجحت من الصف الرابع الى الخامس حين قامت الحرب . أجاب باختصار .

— الى أين تريد أن تذهب الآن ؟. عندما سمع هذا السؤال طأطأ رأسه ، لكن الجندي الذي أحضره مما قال .

— أيها الرفيق الكابتن ، جميع أفراد البطارية يرجونك أن تبقيه في البطارية . التمعت عيناه مرة ثانية . كان يحدِّق فيَّ بعينيه الزرقاوين وكأنه يقول: « أرجوكم ، أبقوني ، ارحموني » . ما كنت بأي حال من الاحوال لأترك هذا الصبي اليتيم لمصيره . وهكذا أمرت بابقائه في سرية الخدمات ليكون في رعايتي . وأصبح الصبي علي قارون الذي نجح من الصف الرابع الى الصف الخامس وحالت الحرب دون اتمام دراسته واحدا من جنودنا .. لكن المتاعب كان لابد منها بسبب الملابس ، فلم نجد في مستودعاتنا من الملابس ما يلائمه الا غطاء الرأس ، ومهما حاول الصغير أن يجعل الملابس التي يرتديها تلائمه ، كان يبدو في هيئة المهرج ، فالبنطال طويل جدا يغطي الحذاء ، والمعطف لسعته يدور حوله مرة ونصف .

وفي يوم من الايام زارنا الجنرال زيارة تفتيشية ، وكان قد مضى على وجود علي بيننا شهر ونصف ، وبينما كان يهم بركوب سيارته لمغادرتنا ، رأى علي الذي كان يراقبنا من وراء مدفع كبير ، فسألني :

— من هو ذاك الذي لايظهر من وراء المدفع ؟.

— أيها الرفيق الجنرال . هذا صبي الفيلق . (وأضفت خائفا من تأنيبه) قبيل مدة قصيرة وجدناه على الطريق يبكي ، أشفقنا عليه وأخضرناه معنا ، انه يتيم .

— اقترب أيها الجندي الصغير . ناداه الجنرال . فخرج علي من وراء المدفع مرتبكا يجر معطفه على الارض واقترب من الجنرال .

— هه .. تظن نفسك جنديا لكنك لاتظهر من وراء المدفع ، من أية عائلة أنت ؟ سأله الجنرال .

وهنا فوجئنا حين وقف وقفة الاستعداد كالصنم ، ودون أن يظهر عليه أي خجل بسبب يديه المختفيتين في كمي المعطف ، قال وهو ينظر الى عيني الجنرال مباشرة :

— أنا من عائلة قارون . أنهيت الصف الرابع

ونجحت الى الصف الخامس ، لكن الحرب حال دون اتمام دراستي. النازيون قتلوا أمي، أبي في الحرب.. قال هذا دون تلكؤ كأي جندي نظامي ، مع أنه يقف لاول مرة في حياته أمام الجنرال ، سررت لان الجنرال أعجبه جواب علي ، لكن فرحتي لم تدم طويلا ، اذ استدار الي وقال :

— كابتن . لماذا تبهدلون المدفعيين ؟ انظر كيف يبدو هذا الصغير في ملابسه !.

ودون أن ينتظر جوابي هتف بعلي « اركب هنا » وأسرعت سيارة الجيب مبتعدة آخذة علي .. كان الجنرال صارما ، وكنت قد أخطأت حين قبلت على دون استشارة القيادة ، وأستحق التأنيب على ذلك، لكني في الواقع كنت قلقا على مصير علي نفسه أكثر من قلقي على تأنيب الجنرال ، وكان الجنود أنفسهم يشاركونني مشاعري تجاه علي . كانوا يشكون الي في أوقات الراحة :

— أيها الرفيق الكابتن . ماذا كان يضر لو بقي هذا الصغير بيننا ؟ لم نكن نريد أن يعطوه حصة جندي ، كنا سنقاسمه طعامنا ونربيه بأنفسنا . وكنت أشارك الجنود شعورهم ، فكل واحد له ابن أو أخ في مثل سن علي ، وقد سمعت أكثر من مرة كيف يبدأ حديثهم عن أهلهم وعائلاتهم « أنا تركت ابنا في مثل سن علي — انا». « ابني الصغير أصغر من علي بسنتين أو ثلاث سنوات». «تركت صغيرا نشيطا وشجاعا مثل علي» كانوا يتخذونه مقياسا . وكان يشبع عاطفة الابوة عندهم جميعا .. ولما تأكدنا أن الجنرال أخذه منا نهائيا ، بدأنا نعود أنفسنا على غيابه تدريجيا ، وعندما أشاع أحد الجنود أنهم أخذوه الى ميتم بعيد قطعنا منه الامل نهائيا .

كنت والجنود نتذكره كثيرا كيف لا نتذكر صبيا نشيطا ذكيا مثله ، كانت له عادة جميلة نحبها جميعا ، فرغم أنه يعرف أنه يتيم بلا مأوى ، لم يره أحد مرة حزينا أو جالسا يفكر في حالته ، لدرجة أصبحنا نظن فيها أنه لن يشتكي أبدا مهما كانت الصعوبات التي تعترض حياتنا. كان يحاول دائما أن يتعلم كل ما لا يعرفه ، وأن يكون نافعا بأية طريقة .

لن أنسى في حياتي هذه الحادثة : كان يوما ممطرا وكنا ننقل المدافع الى مركز جديد عبر طريق موحلة جدا ، فوقع مدفع كبير من فوق جسر صغير في الوادي، وكان علي أول من قفز من فوق السيارة وركض نحو المدفع . وعندما اقترب منه رأيته تناول فأسا وأخذ يحفر الطريق التي يمكن أن يعبرها المدفع . وعندما بدأنا نسحب المدفع رأيته يدفعه بكل قواه وقد ظهرت عروق رقبته الصغيرة . بعد هذه الحادثة رأيت من الافضل أن يقوم بعمل معين ، فأرسلته ليرافق المطبخ المتنقل حتى يكون بعيدا عن الخطوط الامامية . لكنه أخذ يناصبني العداء ، اذا صادفته كان يخفض رأسه ويمر بسرعة ، واذا التقت أعيننا كان ينظر الي شزرا بطرف عينه وكأنه يعاتبني، كان واضحا لي أنه غاضب، وكان يصب غضبه على الحصان (تسوبي) الذي يجر المطبخ المتنقل ، والذي لثقله وكسله الشديد أطلقنا عليه اسم (تسوبي) تشبيها له بالثور .. كان الجنود يقولون : منذ أن استلم علي قيادة تسوبي أصبح أكثر نشاطا ، وكان هذا يزيد في حنق علي « لا يجدونني ملائما الا لأسوق عربة »كان يقول هذا في نفسه ويزداد حنقا لكني أقول الحقيقة — فبعد أن استلم علي مهمة نقل الطعام ، لم تتأخر أية وجبة عن موعدها ، ولو صادف أن العدو اكتشف مواقع بطاريتنا وأخذ يقصفها ، لم يكن يتأخر عن احضار الطعام من أجل ذلك . وكان يحضر مع الطعام الرسائل والبرقيات ، لذلك كان جنودنا يقضون نهارهم بانتظاره.. وبسبب أن الرسائل كثرت بعد مجيء علي . كنا قد تعودنا عليه جميعا ، هل ترضى أن يأخذوا منك رجلا كهذا ؟. كان الجميع حزينين لفراقه ، وكانوا يظنون أن تسوبي عاد كسولا، وأن الرسائل والبرقيات قد قلت بسبب فراقه .

كان قد مضى أسبوع على غياب علي حين صاح الجندي الحارس :

— أيها الرفيق الكابتن . سيارة الجنرال قادمة .

تفقدت البطاقات بسرعة ، ولبست سترتي وهرولت الى الخارج وأنا أزرر أزرارها ، فصادفت سيارة الجنرال أمام الباب ، ووقفت مستعدا لأؤدي التحية

انفتح باب السيارة وخرج . من تظنون انه خرج ؟.

أنه خرج ؟. الجنرال؟. لا « علي ـ نا »هو الذي خرج. لكن ليس الذي عرفناه يرتدي الثياب الفضفاضة . وانما علي الذي يرتدي بزة عسكرية تلائمه ، وحذاء عسكريا صغيرا ملمّعا ، حليق الشعر . كنت واقفا لا أدري ماذا أقول أو أفعل لشدة فرحي .

ـ عليي! هتفت وركضت نحوه . لكنه أجاب بلهجة الراشدين وبشيء من البرودة .

ـ أيها الرفيق الكابتن ، الجنرال وضعني تحت إمرتك .

ـ طيب .. طيب .. وتبادلنا سلاما عسكريا وديا. سألني مستعجلا الجواب .

ـ أي عمل ستكلفني به ؟..

من فرحي لم أستطع أن أجيب بشيء ، نظرت اليه طويلا ، ثم خطوت نحوه فجأة وحملته وأدخلته الخيمة. وهنا فهمت ماذا كان يعني الجنرال حين قال : « لماذا تبهدلون المدفعيين ؟ انظر كيف يبدو هذا الصغير في ملابسه » . أمسكت التليفون لأشارك الآخرين في الفرحة قولوا للجميع ، الجنرال أعاد الينا علي » لكن علي قال : « لا أيها الرفيق الكابتن ، الجنرال لم يعدني اليكم » بردت هذه الكلمات حماستي فسألته :

ـ كيف لم يعدك الينا ؟.

ـ قال الجنرال ، اذا كنت تريد ابق عندي ، لكني فضلت أن أعود اليكم بشرط أن لاتعيدوني الى ظهر تسوبي .. لم أجد مأخذا على مايقوله علي ، فله كل الحق أن يرفض أي عمل لايرضي نزعاته . ومع ذلك لم أستطع أن أكتم ضحكي .

ـ أنت تضحك أيها الرفيق الكابتن ، لكن لو عرفت مدى صعوبة قيادة تسوبي ، انه كاد يقتلني غيظا من كسله .

ـ طيب ، طيب . سننهي العداوة بينك وبين تسوبي . ما هو المكان الذي يلائمك ؟

ـ خلف المدفع . أجاب بسرعة .

ـ ألست صغيرا ؟

ـ هذا ما أسمعه دائما (مقلدا لهجة الكبار) ألست صغيرا .. وماذا يهم اذا كنت صغيرا ، عندما أعجز عن تأدية ما يقوم به الآخرون أكون صغيرا حقا .

الحقيقة أنه لم يكن يصلح بحال من الاحوال أن يكون مدفعيا . لان القنابل التي هي أصغر قطعة فيها ، ليس فقط لايستطيع حملها . وانما اذا استطاع أن يحركها فبصعوبة شديدة . فكرت أن اللاسلكي يناسبه فسألته :

ـ ما رأيك في اللاسلكي .

ـ أنا أعرف حركات « المورس » أجاب فرحا .

ـ عندما كنت على ظهر تسوبي تعلمتها في أوقات فراغي . اسمع أيها الرفيق الكابتن : تا ـ تا ـ تي ، تا ـ تي تا . كان يرددها بسرعة وانتصار . فأدخلته الى قسم اللاسلكي . وخلال شهرين فقط ، أصبح أبرع جندي في ارسال وتلقي الاشارات اللاسلكية .. وهكذا خضنا معارك كثيرة وعلي معنا .. كان الجيش الالماني يتقدم عبر المناطق التي نخليها ، وكنا نضربه ضربات محكمة . حتى اذا وصل الى ستالينغراد تلقى الضربة التي لم يستطع أن يجمع قتلاه بعدها .. وفي الشتاء تحركت جبهة القفقاس . وسرنا بقوة كبيرة نحو الجنوب . وعند مرتفعات « ووروك » انهزم الالمان ، ودخلنا كبارديا(١) وطن علي . وفي يوم من الايام كنت أتمشى في شوارع قرية كبيرة استعدناها من الالمان ، فرأيت علي واقفا أمام أطلال بيت أحرقته القنابل . اقتربت منه وسألته :

ـ علي . لماذا تقف هنا ؟.

ـ هنا كان بيتنا .. وهناك كانت مدرستنا .

الذي أدهشني أن دمعة واحدة لم تتحرك في عينيه . كان واقفا معقد الجبين ، وشفتاه المزمومتان بشدة ترتجفان قليلا .. وعندما عرفت أن هذه قريته سألته :

ـ علي ـ ابق اذا كنت تريد البقاء . فاجأه سؤالي نظر اليّ برهة وقال :

ـ لا أيها الرفيق الكابتن . ليس لدي ما أعمله هنا ..

(١) جمهورية ذات استقلال ذاتي في شمالي القفقاس .

ودون أن يضيف شيئا ، استدار نحو الشارع العريض الذي يتمشى عليه المدفعيون ، تجاوز أطلال مدرسته ، واتجه نحو المقبرة التي تظللها أشجار السرور ، والتي حرثتها الدبابات والسيارات المصفحة . ووقف عند أحد القبور طويلا وهو يمسك قبعته بيده ، ثم غادر المقبرة وأخذ يتجول في شوارع قريته التي ولد فيها . كان يسير ببطء متفحصا كل شيء ، لابد أنه كان يقارن قريته اليوم بما كانت عليه بالامس قبل مجيء العدو .. مدرسته المهدومة ، وشجرة السفرجل الكبيرة التي مزقها الديناميت في صحن داره . وكلبه الصغير (باريري) المقتول . وفوق كل هذا صورة والدته التي لاتفارقه ، كانت تشكل مأساته الخاصة التي تفتح عينيه على وحشية العدو . أستطيع أن أقول باختصار ، أنه في هذه اللحظات الفريدة ودَّع طفولته الى الأبد .

بعد أن غادرنا قرية علي . أصبح كتوما . ولم يعد راغبا في الكلام كما كان سابقا ، وكنا عبثا نحاول أن ننسيه آلامه .. واستمرت معاركنا حتى وصلنا الى مكان محصن للعدو سموه « الحصن الازرق » . تبادلنا القصف بالمدافع مع العدو مدة طويلة . ثم فترت همة الطرفين وهدأ المكان ولم يعد يسمع فيه الا دمدمة المدافع في فترات متقطعة .. كان من المؤكد أن العدو يهيء لنا شيئا ما . لكننا لم نكن نعرف ما هو هذا الشيء ، ومتى موعده . كنا نمر في فترة حرجة . هل هناك أصعب من أن لا تعرف نوايا عدوك . ولمعرفة هذه النوايا ، جاءتنا تعليمات لارسال أحد رجال اللاسلكي مع جهاز الى ما وراء خطوط العدو لينقل الينا تحركات العدو — أقول الحقيقة — ارتبكت لما استلمت هذه التعليمات . فلم يكن قد بقي لدينا من يعمل على اللاسلكي سوى ملازم اللاسلكي وعلي . كنت أسأل الملازم :

— من سنرسل في هذه المهمة ؟. حين أجاب علي الذي كان يسمع حديثنا .

— أنا سأذهب .

كان يبدو ارساله مستحيلا . لان من سيذهب في مثل هذه المهمة عليه أن يحمل أسلحته وذخيرة كافية، وجهاز اللاسلكي، والبطارية اللازمة لتشغيله ، وطعاما يكفيه أربعة أو خمسة أيام . وكل هذا حمل لايقدر على حمله صبي مثل علي .. مرت فترة وأنا أفكر بهذه الاشياء دون أن أجيبه . فكرر بصوت مرتفع ظنا منه أني لم أسمعه .

— أنا سأذهب أيها الرفيق الكابتن . (وفكر أننا لانجده أهلا للقيام بهذه المهمة فأضاف) :

— أنا أعرف أنكم تظنون أني غير كفؤ . أرسلوني وانظروا الى النتيجة . اذا لم ترسلوني سأشتكي للجنرال . هل عندكم غيري من يعرف مفاتيح المورس؟ كل اللاسلكيين في البطارية جدد ولا يستطيعون العمل على مفاتيح المورس .. كان يدافع عن رأيه مستشهدا بالوقائع ، وكان كلامه لاغبار عليه .

— نقطة مهمة أخرى أيها الرفيق الكابتن . ان صغري سيساعدني على التخفي أثناء اجتياز خطوط العدو . سألتصق بالارض وأزحف على بطني طوال الوقت كالقط ولن يتمكن العدو من اكتشافي ، أؤكد لك ذلك .. ودون أن أحتمل المزيد سألته :

— كم سنة عمرك ؟.

— خلال أيام سأكون في الرابعة عشر .

— اذا كان راغبا في الذهاب الى هذا الحد ، فليذهب أيها الرفيق الكابتن . قال الملازم مدافعا عنه . كنت أعرف أنه من الصعب مقاومة رغبات علي . ومن جهة اخرى لم يكن عندنا غيره . فأوعزت أن يذهب معه أحد الجنود ليحمل له المهمات . وفي المساء جاءني علي ورفيقه .

— هل أنتما مستعدان ؟

— نعم أيها الرفيق الكابتن ، أجاب علي . كان واضحا انه يفهم خطورة المهمة الملقاة على عاتقه ، ولم يكن يتظاهر بأي نوع من أنواع الشجاعة الكاذبة . الشجاع ليس بحاجة للتظاهر بالشجاعة . كنا في منتهى التفاهم .

— اذن رافقتك السلامة يا علي . اقتربت منه .

— أرجو لك دوام الصحة ، وشد على يدي بحرارة واستدار وخرج من الخيمة . واجتاز علي في تلك الليلة خطوطنا الامامية زاحفا وضاع في عتمة الليل .. وكما حدث في هذه المرة لم يظهر له أي أثر خلال ثلاثة أيام.

وظننا أنه وقع في قبضة العدو فلمت نفسي كثيرا لاني سمحت له بالذهاب . وكنا جالسين في الخيمة ، كما نحن الآن وقد قطعنا الامل من عودته ، ما زلت أذكر ذلك جيدا .. قبل ساعة من طلوع الفجر بدأ يرسل الاشارات المتفق عليها . كم كانت فرحتنا عظيمة .. كان يرسل كل شيء عن العدو ، نواياه ، عدده ، أسلحته ، أخذنا نفتح الخرائط وننظر الى المواقع التي يحددها . وظهر لنا أن العدو عزز جبهته بلواء مدرع كامل ، وحدد لنا موقع اللواء الجديد على الخارطة ، واستمر يرسل حتى طلوع النهار .. وعندما طلع النهار « تفضل اذا كنت تريد أن تضرب » .. بدأت طائراتنا بهجوم جوي مفاجيء . أعقبناه بقصف شديد بمدفعيتنا ، وخلال ساعات قليلة سيطرنا سيطرة تامة على الموقف .. كانت نية العدو ، أن يخترق في صباح اليوم الذي اتصل بنا فيه علي جبهتنا ، ويقوم بهجوم مضاد معزز باللواء الجديد ، لاستعادة كل مراكزه التي فقدها في القفقاس ، فانظروا كيف كان علي مفيدا لنا في اللحظة الحاسمة .. علي نفسه لم يحدثنا عن مغامرته الا بكلمات مبتسرة ، لكن رفيقه الذي ارسلناه معه حدثنا بالقصة كاملة : بعد أن اجتازا خطوط العدو ، سارا طوال الليل ، وعندما طلع النهار التجآ الى دغل صغير مكثا فيه النهار كله ، وتابعا السير في الليلة الثانية ، وبعد أن قطعا حوالي خمسة كيلو مترات ، تمركزا خلف خطوط العدو ، على مرتفع صغير يشرف على مفترق ثلاث طرق ، وبدآ بمراقبة تحركات العدو ، وهنا لفت انتباه علي ، أن السيارات القادمة كانت تقف عند مفترق الطرق ، فينزل منها بعض الاشخاص ، ويعلقون علامات تحت اللوحات التي تكتب عليها عادة أسماء القرى . وطوال النهار راقبا الطريق مراقبة جيدة ، وأحصيا عدد السيارات والجنود المارين . وعندما خيم المساء ، قاما بهدوء وقتلا الجندي الذي تركه العدو للحراسة ، ولما اقتربا من اللوحات التي تحمل أسماء القرى ، وجدا في أسفلها لوحات اضافية صغيرة تحمل صورة دب وذئب وأسد ، كانت هذه الصور رموزا سرية لقطع العدو ، ترشد كل قطعة للاتجاه الذي يجب أن تسلكه ، وفهم علي الفكرة بسرعة فغيَّر أمكنتها وعادا بسرعة للاختباء . وبعد قليل ارتفع ضجيج العدو ، وبدأت قطع المدفعية والدبابات والناقلات تمر ، كانت تقف ، وينظر بعضهم الى الاشارات المعلقة وتتابع سيرها في الاتجاه الذي تشير اليه . فسلكت كل القطع اتجاها خاطئا . وبعد مرورها انتبهت لخطئها وعادت كلها لتتجمع عند مفترق الطرق حائرة في الاتجاه الذي يجب أن تسلكه . وطلع النهار على هذا الجمع المرتبك من الدبابات والمدافع والجنود ، فبوغت بطائراتنا ونيران مدافعنا . وقبل أن تتاح له أية فرصة للحركة تلقى الضربة القاضية . وعلى ما روى طيارونا فيما بعد ، ان عدد الدبابات التي دمرت ، والجنود الذين قتلوا كان كبيرا جدا . وبعد هذا المأتم فقد العدو كل أمل في استعادة مراكزه المفقودة في القفقاس . وفي اليوم التالي قمنا بهجوم كامل واستعدنا الحصن الازرق وانضم علي ورفيقه الينا سالمين .. وبعد ذلك بأسبوع واحد أخذت علي الى الحفلة التي دعا اليها الجنرال لتوزيع الاوسمة .. كنا نقف في الحديقة الكبيرة جنبا الى جنب بين الجموع الكبيرة ، وكل من ينادى عليه كان يتقدم من منصة الجنرال ويستلم منه الوسام ، نودي على اسم (قارون) فنكشت علي ليتقدم ، لكنه بقي واقفا في مكانه ، وهنا تقدم رجل طويل القامة وتقدم من المنصة ، ولما رآه علي جرى اليه قائلا « أبي ..! أبي .. ! » وأحاط عنقه بذراعيه . وعندما رآه الجنرال نزل من منصته وعلق على صدره وسام (النجم الاحمر) وعانق الأب وابنه كأب كبير .. أنا لا أبكي بسهولة ، لكني في تلك اللحظة لم أملك نفسي من البكاء ، لقد بكيت فرحا ..

ما أن أتم الميجر كلمته الاخيرة ، حتى اقتحم ملازم الاشارة الخيمة يصيح :

— أيها الرفيق الميجر . علي يتكلم .. يتكلم . فخرج الجميع مسرعين من الخيمة ودخلوا الى حيث يوجد جهاز اللاسلكي . كان الضوء الصغير الذي في الجهاز يتحرك باستمرار كعين تفتح وتغلق . كان هذا جوابا على كلمة علي الذي يختبيء في مكان ما خلف خطوط العدو ، وكان يحدد لمدفعيتنا المراكز التي يجب قصفها . كان يقول : « اضربوهم بأقصى قواكم ، اضربوهم دون رحمة » .

— ألم أقل لكم ..؟ ألم أقل لكم أن علي ما يزال حيا .؟؟ كان الميجر يصيح من شدة الفرح وهو يعلِّم الاماكن التي يحددها علي على الخارطة .. وبعد خمسة دقائق كانت مدافعنا البعيدة المدى على أهبة الاستعداد للقصف .



تألقي تألقي
كنجمة في المشرق

ولوني آفاقنا
بمثل لون الشفق

وعطري أجواءنا
ببعض هذا العبق

حسناء يا ذات الجمال
الثر والحسن النقي

الحب يقضي أننا
في كل يوم نلتقي

لتنتشي آمالنا
على الجمال المونق

عيناك نرجستان قد
نمتا بحضن الجرمق

على السفوح الرانيات
إلى مدانا الأزرق

عيناك أعبد فيهما
نوراً غريب الألق

من سحر بابل وهجه
أو من مفاتن جلق

تغار نجم السما
من نورك المؤتلق

بالأمس يا عصفورتي
ثار الهوى في خافقي

واستعرت نيرانه
بكل وهج محرق

فبت من فرط الجوى
كخافق ممزق

يا طوله ليلاً ويا
لسهده المؤرق

إذا غبت عني يومها
فبت كالصب الشقي

يا ضيعة العمر إذا
في أفقنا لم تشرقي

الصمت يؤذي مهجتي
فيا حبيبة انطقي

وغردي في خاطري
عصفورتي وزقزقي

إن مرت الأحرف في
هذا الفم المزوق

هاجت عبيراً ناغياً
مثل أريج الزنبق

عليك إن ثار الهوى
حبيبتي أن تغدقي

جامعة دمشق ـ خليل خلايلي

المفهوم الواقعي الحديث في الفن التشكيلي

* غازي الخالدي

من خلال التاريخ الطويل لحركة الفنون منذ عصر النهضة الى اليوم ، يمكننا أن نلاحظ ببساطة أن كل ما انتج من أعمال في الفن التشكيلي من تصوير ونحت لابد وأن يمر بمشكلة أساسية في عملية التنفيذ التشكيلي وهي (المفهوم) الواقعي .

ما هو « الواقع » في الفن ؟

« الواقع » هو الشيء المباشر في الطبيعة الذي الذي تراه العين وتسمعه الاذن وتلمسه اليد ، وينتقل أثره بالتالي عن طريق الاعصاب الى الدماغ حيث يعطي الدماغ الفعل المنعكس اللازم ليتأقلم مع هذا المسبب أو المثير .

من هذه الحقيقة العلمية المبسطة بدأت مشكلة الفنان في ترجمة هذا الواقع وكيفية التعبير عنه باللون والخط والمساحة والموضوع ، واختلف هذا المفهوم من عصر لآخر ومن فنان لآخر ، فبينما يفسر الواقع في عصر ما قبل النهضة تفسيرا توضيحيا قصصيا ، يستعين الفنان بأكثر من واقع ، وأكثر من صورة ، وأكثر من موقف ، ويجمعها في لوحة واحدة وموضوع واحد دون أن يلاحظ التناقض الذي قد يقع فيه بجمعه عناصر مختلفة وأشياء متناثرة لايربطها رابط ولا يجمعها منطق ، يضعها في لوحته ليوضح زاوية من قصة ، أبعادها تختلف في المكان والزمان كما هو واضح في آثار فن الانسان الاول في المغاور والكهوف ، وفي رسوم الفراعنة على جدران قبورهم عندما يروون قصص الملوك وأعمالهم في الزراعة والفن والتجارة والملاحة والحكم والحرب وكذلك في قصص الحرب في فن الاغريق والاشوريين .

يريد الفنان أن يروي للناس قصة الحكم ، قصة الزراعة ، قصة الموسيقى ، قصة الحرب ، قصة البطولة مستفيدا بتجميعه للوحدات التي توضح فكرته من الواقع الذي يعيش فيه .

ففي مقابر الملوك والملكات في الاقصر في مصر القديمة نجد أن الفنان يعطي الاهمية الاولى للحاكم ويبالغ في نسبه وحجمه الى عشرة أضعاف حجم الاسرى والجنود والرعية التي بين يديه .

صحيح أن المصدر الاصلي لافكاره هو (الواقع) ، والواقع الذي يراه الفنان ان الملك او الحاكم هو أكبر قوة تعيش على الارض ، وحتى يعطي المدلول الواقعي لهذه الحقيقة لابد أن يبالغ في حجم (رمسيس) أو (امنحوتب) أو (الملكة حتشبسوت) أو (كليوباترا) .

أما في فن الاغريق فيرى الانسان يصارع الانسان الآخر في المعارك الحربية الدامية وجها لوجه وبالسلاح الابيض طبعا ، والخيول والحيوانات بأنواعها والعربات وأحيانا النبات تستعمل كل هذه كوحدات تفيد في تركيز الزمان وتحديد المكان ، فيعطي صورة تفصيلية قصصية عن الواقع الذي يعيشه الانسان الاغريقي في ذلك العصر . اذن الواقع هنا مايحدث فعلا في الحياة ، والفنان يأخذ منه الرموز التي يدلل بها على الواقعية ، ومن خلال هذه الرموز تعطى الملامح الخاصة لهذا الفن الذي يمثل فترة ما من تاريخ الفن ، وهذا التاريخ هو الذي حدد فيما بعد العصر نفسه .

وتتابعت العصور ، وبدأ المفهوم الواقعي للفن يأخذ شكلا آخر ، بدأت عملية الاختيار الفردي للفنان في تسجيله لواقعه ، فالحرب ماعادت تصور كما تحدث فعلا في الحياة وانما صار للفنان رأي شخصي يضيفه

الى الواقع ليعطيه معنى فرديا خاصا دون أن يخرج عن نطاق الحادثة نفسها ، فمثلا لوحة (حرب السابين) للفنان دافيد (١٧٤٨ – ١٨٢٥) نرى موقفا غريبا يميل الى الاسلوب المسرحي الذي فيه عملية تركيز وحذف واختيار للزاوية التي تظهر ناحية قصصية معينة من تلك الحرب ، وهي أن الزوجات في تلك المعركة التاريخية تدخلن بين المتحاربين الرومان والسابيين لصالح السلام .

وقد ركز الفنان على هذه الفكرة ولجأ الى تمثيل الحركة بالاجسام العارية لاعتقاده انه أقرب الى الكمال ولكنه بهذا الاعتقاد وبالموقف الذي اختاره لوضع الزوجات والامهات بين المتحاربين : وخاصة الام التي تقف في المقدمة مادة ذراعيها الى أيمين والى اليسار تخاطر بحياتها في سبيل ايقاف الحرب الضروس جعل الموقف مسرحيا دراميا .

ان التصوير باسلوبه الذي عالجه الفنان في هذه اللوحة انما هو اسلوب مأخوذ من الواقع التشريحي والطبيعي تماما . أما وضع الاشخاص في اللوحة وحركتهم وطريقة تلاحم الجيوش في البعد الثالث وتوزيع الاطفال الابرياء بين أرجل المتحاربين فيه تجاوز كبير ، ومبالغة واضحة ليثير نوعا من الاهمية لتلك الحرب ويعطي للام دورا قياديا في خدمة السلام .

هنا اختلف المفهوم الواقعي بين الشكل والمضمون اذ أن الشكل أخذ من الواقع الطبيعي والمضمون فيه الكثير من المثالية والرومانسية .

وهذا المفهوم الجديد هو تماما عكس المفهوم الواقعي الذي رأيناه في الفن الفرعوني حيث نجد هناك أن (المضمون) أخذ من الحقيقة الواقعة في تضخيم الاشكال والمبالغة في ابراز أهمية الحكام والملوك بينما (الشكل) خرج عن نطاق النسب الانسانية الطبيعية ليخدم المضمون الذي يمثل الحقيقة .

نستطيع الآن أن نحدد نقطة البدء بالنسبة لتطور مفهوم الواقع الحديث في فرانسا اعتبارا من مدرسة دافيد وأنجر .

يقول دافيد : (ارسم ماترى ، لا ما تعرف) انه يؤكد لنا أن الرسم اذا لم يؤخذ من الحقيقة الواقعة أمامنا لايسمى رسما ، الحقيقة بكامل أبعادها من حيث النسب والتفاصيل والالوان . وهذا يؤكد ما كنا ذكرناه في تعريفنا الاول للواقع بأنه يعتمد على الرؤية واللمس والسمع .

فما يلمس فعلا هو واقع موجود ، وما يرى فعلا هو واقع موجود أيضا ، ان هذا المفهوم لتحليل الواقع يوصلنا بالحتمية الى الغاء شخصيتنا الفردية وتجاهل أحاسيسنا الشخصية تجاه الواقع المرئي أمامنا .

يريد منا دافيد أن نعيش الطبيعة ونرسمها حسب نتائج هذا القباس ، دون أي تدخل شخصي ، ولكنه هو نفسه كان من حيث لايدري يتدخل في رسم الطبيعة وتحليل الواقع الذي يراه ، وأكبر دليل على ذلك هو الاسلوب الذي عرف به دافيد والطابع الذي يميز جميع أعماله .

ان هذا الطابع معناه أن لدافيد رأيا خاصا في الواقع الذي يراه ويلمسه ويسمعه وان كان لايعترف به . حتى أن أحد تلامذته واسمه (جرو) ضاق ذرعا بتعاليم استاذه وتحديده لمفهوم النقل عن الطبيعة ، فانتحر في نهر السين ليتخلص من عبودية أفكار استاذه الذي يجله ويحترمه ويخشى أن يشق عصا الطاعة عليه .

ولا شك أن (جرو) كان مخطئا في انتحاره لانه لم يفهم تماما سر استاذه في تحديد الاسلوب الشخصي للفنان من خلال رسمه للواقع في الطبيعة .

نعم ان الفنان الاصيل مهما حاول وهو يرسم الواقع المرئي أن يتجاهل رأيه الشخصي وعواطفه وأحاسيسه تجاه الطبيعة لايمكنه أن يفصل روحه وعواطفه وريشته عن ألوانه لان الرسم عملية تكامل بين الوجدان والعقل والاحساس والخبرة ..

ان جرو كان يظن أن استاذه يريده أن ينفصل عن شخصيته ويقتل احساسه أثناء رسمه للطبيعة وهذا غير صحيح كما أوضحنا سابقا في كون وجود اسلوب خاص لدافيد يميزه عن غيره من الفنانين في عصره .

وجاءت واقعية غوستاف كوربيه (١٨١٩–١٨٧٧) وكانت خطوة أخرى نحو التقرب من الانسان في أرقى

انفعالاته وأصفاها ، حيث استفاد الفنان من الطبيعة كثيرا وجعلها عنصرا هاما في اعطاء اطار شاعري للمفهوم الواقعي الذي يعامله وأعطى للانسان الحياة والدم والحيوية والحركة، عكس ماكنا نراه عند دافيد وانجر من المثالية المطلقة التي تقرب الموديل الذي يرسمه الى الالهة والتماثيل .

ووجود الانسان في قلب الطبيعة ليس من ابتكار كوربيه فقد سبقه اليه جورجيوني الا ان المعالجة للاشكال والاحساس الذي أوجده في أشخاصه يعطي واقع الحياة فعلا حتى لتشعر وأنت ترى لوحة (النائمات على العشب) لكوربيه أن صدرهما يعلو ويهبط من حركة التنفس .

ان الواقعية في أعمال كوربيه هي الواقعية الحقيقية النابضة بالحياة ، الواقعية المأخوذة من حياة الانسان وسلوكه وحركاته وليس من شكله فقط .

ويعتبر كوربيه بحق هو الحد الفاصل بين الواقعية المثالية كما وجدنا عند دافيد وأنجر ورفائيل والواقعية الفتوغرافية أو الحركية – اذا صح التعبير – التي تعنى باللقطة الموقوتة وتظهر الانسان في مواقف مفتعلة بطولية وذات حركات مسرحية كما نرى عند الفنانين السوفيت.

وحديثنا عن الفن السوفيتي ، أو فن الدول الاشتراكية بشكل عام يفيدنا من حيث المقارنة بين الواقعية الاشتراكية عندهم ، والواقعية الاشتراكية أيضا عند من يؤمن بالاشتراكية خارج نطاق الدول الشرقية .

يعرف الناقد الفني السوفيتي ف.م زيمنكو الواقعية بما يلي :

(ان الفنان جزء من حياة الاتحاد السوفيتي ، من عملية البناء الشيوعي انه يجرب أن يعكس بصورة صادقة حياة الشعب الجديدة في صور فنه ، وهذا البحث الخلاق يؤدي به بطبيعة الحال الى طريق الواقعية الاشتراكية ، ليس من سبب يدعو الفنان السوفيتي الى الافتراق عن الحياة . ان حياة بلاده حياة شعبه ، تتنفس فرحة البناء والشاعرية اللامتناهية ، شاعرية الفعالية الانسانية المبدعة في تنوعها الممكن كله ، وهذا هو أساس الواقعية غير المتزعزع في الفن السوفيتي) .

ان المفهوم الواقعي في فن البلاد الاشتراكية مرتبط ارتباطا شرطيا مع المضمون ، ولايسمى الفن فنا عندهم الا اذا عبر عن قضية الحزب ، وقضية النضال من أجل مبادىء الماركسية واللنينية .

اذن صار التقيم لا على اساس القيمة التشكيلية البحتة وانما على مدى تعبير الفن عن القضية الاشتراكية .

ويقول في هذا نيدو شيفن (الناقد الفني السوفيتي).
« والفن يفقد كل معناه منذ اللحظة التي ينفصل فيها عن الواقع » .

ومعنى هذا واضح تماما وهو أن الفن اذا لم يكن واقعيا لايسمى فنا في نظرهم وبالتالي تفسيرهم لمفهوم الواقع يختلف عن تفسيره في فرنسا مثلا .

يقول أحد النقاد السوفيت : ان الفنان الواقعي يصيغ فهمه لما هو جميل حين يعمم ويبرز ما هو ما هو أكثر جوهرية وأكثر تقدمية .

ان الواجب الاهم الذي يقع على عاتق فنانينا هو أن يقدموا أفضل صفات الشعب السوفيتي وأكثرها تقدمية على اعتبارها ما هو جميل .

من هذا التعريف نخلص الى الحقيقة التالية من وجهة النظر السوفيتية : ان كل ما هو جميل هو تقدمي ، وكل ما هو تقدمي هو واقعي ، وكل ما هو واقعي : هو ما يسمى بالفن . حتى أن لينين نفسه يقول في معرض حديثه عن الفن والادب في (المؤلفات الكاملة) :

« ينبغي للنشاط الادبي أن يصبح جزءا من القضية البروليتارية العامة ». ويؤكد ذلك الناقد نيدو شيفين بقوله : « ان المحتوى الفكري الاشتراكي هو الاساس المانح فننا الحياة » .

نعود الآن لنضرب بعض الامثال الحية في تاريخ الفن عن المفهوم الثاني للواقعية عند بعض الاشتراكيين خارج البلاد السوفيتية .

من التعاريف السابقة يمكننا أن نلاحظ أن الفن بنظر السوفيت لايسمى فنا اذا خرج عن الشكل الواقعي أو اذا خرج عن المضمون الاشتراكي كما هو واضح في اعمال الفنانين الروس : (ريبين وفسوريكوف وجراسيموف ويوجانسون) وغيرهم .

بينما نجد في بعض الاعمال الفنية المشهورة خارج الاتحاد السوفيتي تحمل نفس المفاهيم الاشتراكية ، ونفس القضية البروليتارية ، ونفس الشعارات التي ينادي بهاالاتحاد السوفيتي، ولكن باسلوب غيرواقعي، وشكل جديد ..

ولنأخذ مثلا موضوع ديكتاتورية رأس المال ، وتحكمها في الشعوب ، ومحاولة اذلال الانسان والسيطرة على مقدراته باحدى اساليب الاقطاعية القاسية !

كيف عبر الفنان السوفيتي الواقعي عن هذه المشكلة ؟ انهم بلاشك – وهذا ما نلاحظه في أكثر أعمالهم – يرسمون عشرة عمال أو عشرة فلاحين أو أكثر ، وهم في مظاهرة يتجهون الى مكتب الاقطاعي صاحبالمعمل أو الارض أو المزرعة أوالقرية، وبأيديهم المطارق والمناجل والمعاول ، يطالبون بالحقوق العمالية وعلى وجوههم الثورة ، والاستنكار ، والاصرار ، وفي ملامحهم وحركاتهم القوة والصلابة ، وتجد التفاصيل في جميع أجزاء اللوحة : كالأم التي تحمل طفلها تركض وراء العمال لتشارك ايضا في الثورة .. والمناظر الطبيعية ، والملابس ، والادوات التي يحملونها ، وطريقة توزيع هؤلاء العمال أو الفلاحين في اللوحة ، كأن الجميع على خشبة مسرح !

بينما نلاحظ في لوحة بسيطة صغيرة للفنان المكسيكي « ريفيرا » نفس المضمون ، ونفس الافكار، ونفس الهدف الاشتراكي، ونفس القضيةالبروليتارية في لوحة « حاملة الزنبق » !

حيث ترى أعمق معنى للعبودية الاقطاعية في الانسانة البسيطة الطيبة المنحنية نحو الارض تحمل الزنبق الذي هو حصيلة مجهود انساني خلال اشهر طويلة ، تحمله وتقدمه الى الطبقة البورجوازية ليكون بالنسبة لهم ترفا وزينة .

أو لوحة « الجرنيكا » لبابلوبيكاسو حيث عالج موضوع الحرب والسلم بشكل لم يسبقه اليه أحد ، بشكل جديد تماما ، وفيه كل المعاني التي تكرهنا بالحرب ، أو لوحةالطبيعة الصامتة لفانجوخ ، وآكلو البطاطا لنفس الفنان ، ولوحة الغسالات لدومية .

كل هذه الاعمال تعبر عن الواقع باسلوب رمزي أو تجريدي أو تعبيري ، الا انها لاتخرج عن نطاق المفهوم الانساني العام لنضال العامل والفلاحوالانسان عامة من أجل السلام والمستقبل الافضل .

ونستطيع ان نسميها (واقعية المضمون) .. أو (واقعية الهدف) .. أو (واقعية الفكرة !) . لا واقعية الشكل وحرفية الصورة .

وينتج عن ذلك – كما يقول احد النقادالروس – « انه من الخطأ ان تنظر الى الصورة الفنية على انها مرآة للواقع بكل بساطة ، أو بصورة أدق على انها انعكاسة المنفعل بكل بساطة .

ان ارجاعنا الصورة الفنية الى مجرد تمثيل جديد لما هو موجود يعني نسياننا السمة الاهم الخاصة بمعرفة العالم بشكل الصور ، الا وهو التعميم الذي يفرض سلفا اكتشاف قوانين التطور ، فهو يتضمن بالتالي عناصر المحاكمة المتعلقة بالشيء الموصوف ، وذلك يعني نسياننا ان الفكرة هي نواة كل أثر فني حقيقي » .

وهذا المفهوم الجديد للواقعية هو الذي يعيش الآن في اوروبا ، وفي المكسيك وفي اليابان وفي الهند ، وفي بعض بلدان شمالي افريقيا .

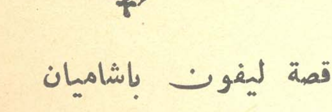
الواقعية تؤخذ منواقعالحياةواحداثها ومشاكلها على شكل فكرة .. ثم تصاغ بأساليب جديدة مستحدثة لاتمت الى « شكل » الواقع الحقيقي بصلة وانما تعبر عن روح هذا الواقع ومفهومه الجوهري لانها أخذت عنه فكرتها وموضوعها .

ان غاية الفن ان يعبر عن الانسان بكل ابعاده، الحضارية ، والنفسية ، والمادية ، والاجتماعية ، أما الاسلوب المعالج لهذه الغاية فيختلف من بيئة الى أخرى ومن شعب الى آخر ، الا انه يبقى فنا أصيلا وخالدا وناجحا طالما أنه يعبر عن واقع الانسان وجوهره وقضيته بشكل جدي وصادق .

وبعد ذلك لايهم أن نقول فن سوفيتي واقعي وفن فرنسي تجريدي ، وفن هندي تعبيري وفن مكسيكي رمزي ! طالما ان جوهر الواقع المأخوذ من حياة الانسان هو مصدر كل انتاج فني في سائر أنحاء العالم !

هذا هو الفن الواقعي بمعناه الواسع .

القبلة الاخيرة



قصة ليفون باشاميان

تعريب : نظار - ب - نظاريان

كانت حالة من الفوضى تسود الغرفة ، فالمقاعد والارائك متناثرة هنا وهناك بغير انتظام أو ترتيب واكياس من الكتب تشغل جزءا من الغرفة وعشرات القناني الصغيرة والزجاجات تحتل وجه طاولة في جزء آخر منها ، هنا مكتبة مفتوحة الادراج وهناك على بعض الرفوف تلتمع آلات طبية مختلفة من مقصات ومشارط وسكاكين وملاقط وغيرها ، وفي وسط هذه الفوضى التي كانت تسود الغرفة وقف شاب في الخامسة والثلاثين أو الاربعين من عمره يخرج الكتب المجلدة الكبيرة ويضعها في المكتبة بحركة تدل على العجلة والانشغال .

وكانت امرأة عجوز جالسة على كنبة تشغل زاوية من الغرفة وقد كلل الشيب رأسها ، بينما النعاس يداعب أجفانها دافعا الى النوم ، وكانت بين الحين والآخر تحرك رأسها المتداعي بحركات سريعة قصيرة وتفتح عينيها نصف فتحة لتلقي نظرة على ما حولها ولتعود من جديد الى غطيطها فيعود رأسها الى السقوط حتى يستقر فكها السفلي أحيانا على صدرها .

كانت ليلة من ليالي شهر ايار وكانت الساعة قد تخطت الثالثة بعد منتصف الليل ومصباح الكاز يرسل نوره على محتويات الغرفة فتلتمع الآلات الفولاذية مرسلة بعض بريقها ، بينما كانت بعض زوايا الغرفة مظلمة بعض الشيء ، وكانت حركات المرأة العجوز ترتسم على الحائط خيالات متحركة حسب حركات رأسها ويديها ، فحينا تكبر هذه الخيالات وتتضخم وآخر تصغر وتنكمش . التفت الشاب فجأة نحو المرأة وقال لها : (قومي يا أماه اذهبي ونامي ، لابد انك تعبت كثيرا في هذين اليومين) . فأجابته المرأة وهي تعصر عينيها بابهامها : (وأنت يا «درطاد» ألا يكفيك كل هذا العمل !؟ أترك الباقي للغد) . أجابها الشاب (في الحقيقة يا أماه تعبت ، وسأترك ترتيب الكتب للغد ولكن دعيني ارتب هذه الاوراق التي بقيت دون ترتيب منذ أمد بعيد ، انها تشغل مكانا دون فائدة) . ثم تناول رزمة كبيرة من الاوراق وأخذ يلقي نظرة على محتويات كل ورقة منها فيضع المهم منها في درج المكتبة ويمزق الباقي ملقيا اياه على الارض .

كان الدكتور « درطاد باركيفيان » قد انتقل منذ يومين فقط مع أهله الى هذا المسكن الجديد الكائن في حي « بنكالتي » وكان حتى ذلك التاريخ يقطن في شارع « ياني كابو » في استنبول ، اما سبب انتقاله فكان نجاحه وكثرة زبائنه القاطنين في حي مسكنه الجديد ، وكذلك سعيه لجلب أكبر عدد من الزبائن، رغم انه لم يكن طبيبا مشهورا ولكنه مع ذلك كان يلاقي النجاح المضطرد بين العائلات المتوسطة .

لم يكن متخرجا من كليات باريز بل من كلية الطب العثماني في استنبول ، لكنه مع ذلك كان قد زار في

يوم من الايام مدينتي باريز وفيينا .

كان الطبيب شابا فارع الطول ذا عينين زرقاوين يشع منهما بريق الطيب والتواضع ، وكانت تبدو على وجهه نفحة حلوة حزينة من التفكير ، وكان محبوبا من الفقراء لطيب عنصره وروحه الانسانية ولكثرة عطفه عليهم .

كان يغادر دار مريضه دون أن يتلفت نحو يد صاحب الدار ، وكذلك كان محترما عند العائلات الميسورة بسبب جدّه ونشاطه في مهنتـه ، وبسبب معرفته كيفية معاملتهم بلطف وحذر .

كان يعيش مع والديه المسنين وشقيقته العزباء، وكان هدفه الوحيد الذي يسعى اليه هو تأمين الراحة والطمأنينة لأفراد أهله . كان ابن عائلة فقيرة الحال معسورة ، ولكنه كان قد استطاع رغم ذلك أن يوفر بعض اليسر والطمأنينة لعائلته بعمله المستمر وكـده الشخصي . وهكذا كانت أيامه تمضي هادئة مطمئنة وهو غارق في حنان وعطف افراد أهله .

كانت أوراق الرزمة تمر من بين اصابعه لتستقر بعضها داخل الدرج ولتزيد بعضهـا الآخر كـومة المهملات المتراكمة تحت قدميه وقطعها الممزقة تتطاير هنا وهناك . كانت هذه الرزمة تحتوي على أوراق متآكلة مصفرة تتألف من الرسائل القديمة وبطاقات الزيارات العتيقة ، فكانت نظرة منه كافية لتقرير مصير كل واحدة منها .

الآن وفي هذه اللحظة كان الطبيب يلقي نظرة على رزمة رقيقة من الاوراق أكل الزمان من لونهـا ما استطاع كانت مربوطة بشريط غير شاحب . حل عقد الشريط بغير اهتمام لالقاء نظرة على محتوياتها حسب العادة ، غير انه ما كادت نظرته تقع على خطوط هذه الرسائل التي كانت معالمها على وشك الضياع حتى ارتسمت على وجهه علائم الانقباض والالم فتوقف لحظة دون حراك ثم تصفح تلك الرسائل دون وعي منه لانها كانت تبعث في مخيلته ذكريات كثيرة وأفكارا عديدة ، كان يعرف صاحب تلك الرسائـل دون ان يقرأ في ذيلها التوقيع الذي كان يحمل اسم امرأة تدعى (فركين ميكائيليان) الا انه قذفها في درج المكتبة بحركة عصبية وتقدم نحو النافذة يفتح مصراعيها ثم وقف امامها صامتا دون حراك .

كان الظلام يخيم على كل شيء خارج الغرفة ، بل كانت سماء ايار تخفف بعض الشيء حلكة هـذا الظلام بنجومها المتلألئة على كبدها ، وكانت نسمات خفيفة تهب من بعض الجهات وتداعب بلطف وانتعاش ولذة الطبيب الذي كان لا يزال واقفا قرب النافذة غارقا في لجة الذكريات الماضية .

أجل ... أجل انه كان يحب تلك الفتاة حبا شديدا ، ويهواها بجنون فيما مضى عندما كان طالبا فقيرا لا يملك شيئا ، كانت صورتها تنسيه كل أتعابه وشقائه وكانت هي التي تبعث الهمة والنشاط فـي نفسه وتدفعه الى العمل ، كان يذكر جيدا وجههـا الدقيق الانيس بكل تفاصيله وخاصة عينيها الكبيرتين الصافيتين ، تلك العيون التي كان سوادها يغوص في بحر بياضها الحزين . كانت هي في الثانية والعشرين من عمرها ، اما هو فكان في الرابعة والعشرين . كان يحبها حبا صادقا عميقا ، وكان ينتظر اليـوم الذي سينال فيه شهادة الطب التي تسمح له بطلب يـد

فتاته من والدها الذي كان صاحب متجر لبيع الالبسة الداخلية ، وكان يحترم الشاب كثيرا لطيب أخلاقه وحسن سيرته . وذات يوم علم من أمه ان خاطبا ميسورا يعمل بصياغة المجوهرات تقدم يطلب يد الفتاة ، وكانت الام تجهل تعلق ابنها بحب تلك الفتاة . ربما لم يخبرها بذلك خجلا أو خوفا من انتقاداتا . لم يضطرب الشاب لهذا النبأ لانه كان يعلم يقينا بأن فتاته سترفض كل خاطب سواه ، غيرانه لم تمض مدة طويلة حتى سمع ان خطبة « فركين » قد تمت للشاب الميسور . لم يراجع أهل الفتاة ولم يتقدم منهم لطلب يدها لانه كان يعرف تاجر الالبسة حق المعرفة فلا شك انه سيفضل الخاطب الغني المضمون على طالب الطب الفقير بمستقبله المضطرب وهو خاطب في الغيب غير مضمون . لذلك وارى ألمه ألم الحب والكرامة الجريحة في اعماق قلبه، وعقد العزم وصمم على عدم مقابلة تلك الفتاة بعد ذلك ابدا . لكنه بقي مدهوشا دهشة الالم والتساؤل، اذ كيف رضيت تركه بهذه السهولة !؟ انه عمل ليستحق الاحتقار. الا انه علم فيما بعد بأن مشاجرات عنيفة وجدالا طويلا جرت بين الاب وابنته ، وكانت هي الخاسرة وهو المنتصر في النهاية . انصرف الشاب بعد ذلك الى دروسه بكل جوارحه متناسيا حبه تحت وطأة الدروس المضنية الكثيرة .

لكن صورة تلك السعاد البعيدة ، والحياة الهنيئة التي رسمها في فكره لم تمح ولم تغادر مخيلته طوال السنوات الماضية ، فكانت هذه الصور تتوارد الى عالم أفكاره لتنشر الاضطراب فيه . لقد تعرف الى كثير من السيدات والفتيات ، ولكن اية واحدة منهن لم تبعث في قلبه تلك الاحساسات التي كان يتذوقها بكل قدسية في السنوات الاولى من شبابه . كانت أمه تلح عليه دائما بالزواج ولكنه كان دائما يؤجل مسألة زواجه محاولا التهرب من البحث فيها . كان قد نسي شيئا فشيئا معاملة فتاته القاسية له ، كان يذكر فقط ـ كلما ذكرته أمه بالزواج ـ بشرتها الصافية ونفسها الطاهرة الناعمة فكأنها وضعت داخل اطار بديع سريع العطب .

لم يبحث عن (فركين) بعد زواجها ولم يستقص اخبارها ، فكانت بعد زواجها مباشرة قد انتقلت الى حي بعيد عن حيهم . اما هو فكان قد غادر استنبول الى مكان بعيد مدة من الزمن بشكل اضطراري ، لكنه بعد عودته الى استنبول لم يحصل على أية معلومات عنها وعن اخبارها . كانت سنوات كثيرة جاءت ومضت حاملة معها هموما جديدة وتفكيرا جديدا الا ان تلك الوريقات الشاحبة كانت توقظ في هذه اللحظة وتبعث في نفسه من جديد ذكريات غائضة في الماضي البعيد مثلما تبعث قبسات النار الخافية تحت الرماد عندما تعصف الرياح بطبقة الرماد كاشفة ما تحتها .

قرع الباب فجأة بشدة ، فالتفت الطبيب نحو مصدر الصوت ، ورفعت المرأة العجوز التي كانت تغط في النوم رأسها حالا وهي تتمتم قائلة (من يقرع الباب في مثل هذه الساعة !؟) ولم تمض لحظات حتى فتح الباب وظهر فيه خادمهم فسأله الطبيب (من بالباب يا ميناس !؟) أجابه الخادم (شخص سألني عن دار الطبيب الجديد ، فاجبته بالايجاب) .

ـ حسنا ماذا يريد ؟ : انه جاء من أجل مريض خطر يريد اصطحابك معه . فبدرت من الطبيب حركة انزعاج ثم سأله ـ هل مسكنهم بعيد ؟ : كلا ياسيدي، يقول ان دارهم تقع في الزقاق التحتاني قرب حارتنا . وهنا التفتت أمه اليه وقالت بعد ان لاحظت انزعاج ابنها : قم يا بني واذهب معه فان الجو لطيف، وتكون قد قمت بعمل خيِّر . من يعلم !؟ أية حالة انتابتهم حتى اجبروا على النزول الى الشارع في مثل هذه الساعة . ثم التفتت الى الخادم قائلة ـ اشعل الفانوس يا ميناس ورافق سيدك . لم يبد الطبيب أي امتناع بعد ذلك فتناول المعطف والقبعة وأخذ يهبط الدرجات الى الشارع . وجد شابا أمام باب الدار ينتظره وقد بدت على وجهه علائم الاضطراب . سأله الطبيب ـ هل هناك ضرورة لاجلب معي آلات وادوات الجراحة أو أي شيء آخر ؟ . فأجابه الشاب : كلا يادكتور . فلنذهب اذا ، مم يشكو المريض ؟ من مرض الصدر يا دكتور ، منذ ثلاثة أشهر والمريضة طريحة الفراش ، في ليلة اول البارحة جئنا بطبيب ، غير ان المرض قد اشتد في هذه الليلة وكنا قد علمنا بخبر انتقالكم الي حينا فأسرعنا اليكم . تابعوا طريقهم بعد ذلك دون كلمة على ضوء فانوس الخادم الذي كان يتقدمهم واخيرا وقفوا أمام باب دار كبيرة، قرع الشاب الجرس بالتتالي حتى فتح الباب وظهر على عتبته رجل مسن بللت الدموع مآقيه قاد الطبيب الى صالون واسع وفتح بابه وهو يقول بصوت مخنوق خرج من حنجرته بصعوبة : هنا المريضة يا دكتور ، انها زوجتي .. انها تحتضر ، اتوسل اليك يا دكتور اعمل بكل ما في وسعك لانقاذها كرامة لله ...

كان الصالون يشكل غرفة عريضة ينيرها مصباح زجاجي للكاز باطار بلوري يرسل نوره الشاحب ليملأ الغرفة ظلالا وخيالات مختلفة الاشكال ، وكانت الستائر مسدلة ، وسرير المريضة يشغل احدى الزوايا، وبجانبه منضدة صغيرة اصطفت عليها انواع زجاجات العقاقير المختلفة ، وبعض الملاعق والعلب الصغيرة ، وعلى مخدة الفراش المطرز الاطراف كانت امرأة تريح رأسها في غيبوبة وعيناها مفتوحتان نصف فتحة وقد ارتسمت على وجهها الهزيل صورة تعب غير متناه، واكتست ملامحها الجميلة ببياض كبياض شمع العسل، انه لون خيالي غير مادي ليس من الوان هذه الدنيا، ومن فتحة قميص نومها كانت تبدو عظام صدرها بارزة مشكلة فيما بينها بعض الحفر من جلدها الرخو المهدل .

اقترب الطبيب من المريضة واسند ركبتيه على البساط العجمي ، و ... وعندما وقعت عيناه على وجه المريضة احس بحاجة الى جمع كل شجاعته المعنوية لحبس (آه) انطلقت من جوفه تريد الخروج من فمه . انه يعرف هذه المرأة حق المعرفة انها (فركين) فتاة احلامه الماضية ، ان تلك الملامح وان كانت قد هزلت في ساعات الاحتضار الا انها لا تزال تحافظ على حلاوتها وجمالها اللذين كانا فيما مضى ، وعيناها السوداوان كانتا لاتزالان تحتفظان بنفس النظرات الذابلة المخدرة التي تهز كوامن النفس ، ما زالتا حيتين في ثنايا فكره .

عقدت الدهشة والمفاجأة لسان الطبيب فلم يجد فرصة ليأتي بحركة ما . كانت المريضة قد شعرت بانتفاضة في جسمها ويقظة تسري في اوصالها ، فبعد ان ارسلت نظراتها المضطربة الى جميع الجهات عادت تركزها على وجه الطبيب بدهشة لا توصف . أية هزة مفاجئة يا ترى !؟ أيقظت القدرة في اراكها المنهار !؟ ادراك ذاتها المنطلق في الاثير خارجا من دماغها الغارق

في الغيبوبة ؟؟ أية قدرة علوية هذه التي انبعثت في لحظة حياتها السائرة الى الفناء لتجمع بها شتات أفكارها ولتركزها حول نقطة معينة ٠ ما كان باستطاعة احد الاجابة على ذلك ٠ الا ان رأس المريضة تراجع قليلا قليلا الى الخلف ، ولمعت عيناها ببريق الامل والرجاء فارتسمت على شفتيها ابتسامة بريئة كابتسامة الاطفال، ثم همست متأوهة عبارة (آهه ٠٠٠ يادرطاد ٠٠) بصوت خفيف هزيل لم يسمعه الطبيب وانما حزره وفهمه من حركة شفتيها وانفاسها الحارة التي جاءت تلفح خديه ، واذا المريضة تمد ذراعيها بآخر محاولة من قوتها وتلفهما حول عنق الطبيب جاذبة رأسه نحوها بشكل جاءت شفتاه تمسان شفتيها الحارتين اللتين طبعتا عليهما قبلتها الاخيرة آخر قبلة لها ٠

وعندما صحا الطبيب وانقذ رأسه من هذا الاسر العلوي الذي لا يمت بصلة الى هذه الدنيا كان قد احس ببرودة الموت تسري في جسمها ٠ كانت المريضة قد ماتت ٠

كانت تبدو على محياها علائم الهدوء والاطمئنان، علائم السعادة العلوية الخالدة ٠ السعادة التي كانت تمنح الراحة لملامحها الطاهرة دون أن تترك مجالا لظهور أي أثر من آثار الآلام عليها ، وكانت عيناها المفتوحتان اللتان جمدتا بصفاء اللحظة السماوية ترسلان نظرات أبدية علوية لانهائية ، نظرات ليست دنيوية وكانتا تعكسان في جمودهما وهدوئهما فرحة القلب الاخيرة ٠ آخر فرحة وسعادة لفؤادها ٠

ألقى الطبيب نظرة على ما حوله ونهض واقفا كالحالم الذي يفقد ادراكه لواقعه تحت تأثير حلمه ورأى الدموع في مآقي من تجمع حوله من الرجال والنساء ، وسمع صوت نجيب بعض النسوة يشتد ، فغادر الغرفة بخطوات ثابتة ونزل من درجات الدار الى الشارع فاتحا الباب وسار دون أن ينظر الى الخادم الذي كان ينتظره وعلى يده المعطف ، فسار وراء سيده بل أخذ يركض ليلحق به دون أن يدري أو يفهم شيئا من تصرفه هذا ، حتى انه لم تسنح له الفرصة لاشعال الفانوس ولم يجد الشجاعة لمكالمته فأخذ يركض وراءه والمعطف يتأرجح على ساعده حتى وصلا الى البيت فصعد الطبيب الى غرفته بنفس الحركات الآلية التي غادر بها دار المريضة ٠ استيقظت أم الطبيب من نومها ونهضت مقتربة من ابنها وهي تسأله ـ ما الخبر يادرطاد !؟ فلم يجبها الشاب وانما اقترب من الكنبة وألقى بنفسه عليها بكل ثقله ٠ اقتربت المرأة العجوز من ابنها خائفة هالعة وسألته : ماذا جرى يابني !!؟؟ ما الخبر ٠٠٠ انك مضطرب ما هذا الاصفرار البادي على وجهك !!؟؟ قل ما بك ، هل تشعر بغثيان !؟؟ أتريد كاسا من (الليموناتا) ٠٠ أم انك جزعت في الطريق ؟!٠٠ أتشعر بألم في معدتك ؟؟ هل كانت حالة المريض خطرة ٠٠!؟؟ ٠ وبعد صمت قصير أجابها الطبيب أخيرا : لا يا أماه لا ، لاتزعجي نفسك انني بخير ولا أشعر بأي شيء ٠

ولم تجبه العجوز بكلمة ما وانما أدركت بحاسة الأم ان عليها عدم التمادي في البحث عما في نفس ابنها أكثر مما يجب ، فجلست على مسند الكنبة ووضعت رأس ابنها على ركبتيها وأخذت تمسح بيدها جبينه الملتهب ٠ كانت بين الحين والآخر تصعد آهة من اعماق الشاب يهتز لها جسمه هزة عصبية بكل جوارحه ٠ وأخذت بعدئذ تهدأ أنفاسه شيئا فشيئا وتلاشت التشنجات العصبية من حركاته وعاد الى ملامح وجهه لونها الطبيعي ولكن تمازجه لفحة حزن أكثر من ذي قبل ٠ كانت يدا أمه الخبيرتان تبعثان في قرارة نفسه موجة من الاطمئنان والهدوء، حتى ثقلت أجفانه بالنعاس فنام ٠ ومرة ثانية كان جسمه يعود ليقوم بدوره تاركا للفكر المجال الرحب ليحلق بين طيات الآلام والآمال المتلاشية والاضطرابات النفسية التي كانت تتجدد باستمرار ٠

ترجمها عن الارمنية

نظار ٠ ب ٠ نظاريان (حلب)

انا لم يغيرني الزمان

شعر: رفعة الشيخ

كفّي فدبتك يا مليحة وارجعي
عام وبعض العام بعد فراقنا
ودعت قلبي .. بعد ما حطمته
ووضعت قلبا كالحديد قساوة

أنا بعد حبك لم أجفف أدمعي
ورفيف صدك لم يزل في سمعي
يا رب .. فارحم حزن كل مودع
لا يستجيب لنزوة وتصدع

وأتيت داري .. أي سر يا ترى
وشجيرة النارنج اسكرها اللقا
وأنا .. ؟ أنا من !؟ كيف ؟ أين وجدتها
ورجعت للقلب الخؤون اريده
ويحي ظننته كالحديد قساوة
ويحي أينسى وعده ويخونني

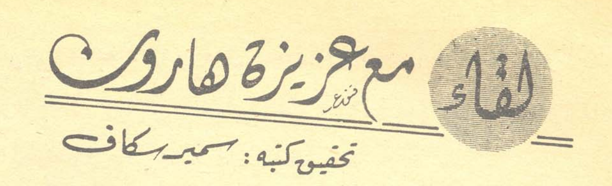
حتى الستائر تنحني بتضرع
فحنت عليك حنو أم مرضع
ولم ارتبكت .. ؟ وهل نسيت ترفعي ؟
واذا به قد ذاب بين الاضلع
واذا به يهوى بغير تمنع
متـآمر قلبي .. ! على من أدعي ؟

أنا لم يغيرني الزمان ولم أزل
أنا لا أريدك يا مليحة انما
وبه خلقت فما يباعدني الهوى
فلنا مع الأيام درب واحد
لكنني ألقى الحقيقة مرة
وأراك كالحظ السعيد بعيدة
وأود لو ان البلادة في دمي
أقسى من الاقسى وفوق تحملي
سأغادر الدنيا اذا لم تتركي

أهوى برغم تفاءولي وتصنعي
أنا ناسك محراب حبك مهجعي
سيكون للحب المؤبد مرجعي
بالرغم مما تدعين وأدعي
كالليل في دربي يلوّن برقعي
فوق الطموح وفوق كل تطلعي
كي لا أحس ولا اسوح بأدمعي
هذا الشعور وفوق كل توقعي
دنياي او لم في الهوى تتورعي

من خمرة الاحزان دنّي طافح
فاذا نسيتك مرة ذكرتني
واذا افاق الهائمون تذكروا
في غابة الحرمان تخفق رايتي

من نشوة سكرى لكوب مشرع
واذا رجوتك مرة لم تسمعي
اما أنا الاك دوما لا أعي
وعلى رمال البؤس يعرف موضعي



الشاعرة التي غنت برغم جراحاتها المثخنة :

غنت للطبيعة ، للامومة ، للامة ، للبطولة .. فحياتها غناء وجراحاتها ألحان .. لنستمع اليها تصف فارس أحلامها :

ألمح في عينيه ألواني
فجري وأحلامي وايماني
كأن في عينيه زهر المنى
منطلقا في سحر نيسان
يا وجهه طفل ندي الرؤى
هل تفهم الاطفال أحزاني

وتعود مذعورة الى نفسها وكلمات امها تضطرم في قلبها .

وأمي قد حدثتني
حديث الهوى والدلال
وقالت : تموت
الصبابة بعد الوصال

فتؤرقها كلمات امها . وتحرقها عواطفها المشبوبة فتسأل بحيرة ...

اذا ما يشم حبيبي عطري ...
ايذبل زهري ؟
وأفقد ظهري ويخبو
ضياءي وذكري ؟

ثم تقول :

اخاف ضياع العبير
وارهب هول المصير
ويضرم خدي
توهج وجدي
واقتل حبي
بصدي ...

وتعيش موزعة العواطف والافكار وتعترض حياتها عثرات كبيرة تذللها بقلب مؤمن وروح متوثبة، وتعود للغناء فتغني أشواقها ...

أحبك لم تقلها لي
وترسل انه الحب
سقيت زنابقي خمرا
فجن الورد في دربي
أحبك لم تقلها لي
وفي عينيك معناها
فلو ارسلتها لحنا
اماكنا رشفناها ؟

وشاعرتنا ام ، والامومة بكل معطاياتها تموج في اعماقها ، تسكرها ، تذهلها .. فتنادي كل طفل وتغني له وتتمنى لو تطعمه قلبها وتفرحه بخيالها :

ماالذي ادناك مني
اعلمت
ان في قلبي تبعا
فوردت
فارشفي ما شئت من قلبي
حنانا
يرتوي قلبي اذا أنت رشفت
وابتسمت

وتتألم للطفل البائس وتتخيل غدا لانرى فيه طفل مشردا ..

غدا لن نرى ألف طفل
شريد
بكل صعيد
وانا تهم من بعيد
تذيب الجليد
والف مهاة
تبيع صباها
لتحيا حياة العبيد

نداء عذب

احببتها اذ احببتك .. احببت فيها حبك .. ليتني اعرفها ، التقي بها لاتوسل اليها ان ترعاك ، وتحنو عليك ، وتعوضك انسانة كانت تلبي همس ندائك . وتحضن رفيف انفاسك .. انسانة قطرت وجودها في هيكل حبك واعطتك كل الذي يعطى وما ليس يعطى ..

وانت ايتها الغريبة ارجوك كوني لانساني الاخت التي يحتاجها والام التي يتوق لحنانها ، والصويقةالتي يسعى الى قربها ، والحبيبة التي يتيه في دربها ..

انك تستغربين توسلي وندائي .. فانا عابدة صغيرة راكعة ابدا في محراب حبها ترعاه وتناجيه .. انسانة الحب عندها عطاء والرجل معنى الاله ، انسانة ادخلتك هي عرفتها واشركتك قلقها وظلامها ، وناجتك بعبراتها ، وتوسلت اليك بلغة لا تفهمين منها حرفا وقلب يعيش حبه المصلوب على زهرة قطن ، وكأس خمر ، ونفحة عطر ودفء صدر .. توسلت اليك أن ترعي معبودا درج في احضان الحب والدلال والعطر والحنان وعاش الفكر القلق والعاطفة المشبوبة واللذة المخمورة والرعشة المحمومة ..

ارجوك بدمع عرف مجراه على الخد ، وحرف يخنقه الهجر ، حققي آمالا عاشت في اعماقي المشردة ، امنحي انساني طفلا حلمت ان ارزقه يوما ، اعطه اطمئنانا صليت طويلا لتحقيقه ، امنحيه بسمة اختفت من ثغري .. حبيه من اجلي ، ودعيني اصلي له ، فأمنيتي اسعاده ويكفيني ان احيا في بلدة يتنفسهواءها وأمر بدرب يعرف خطاه وشارع يسكر من عبيره ..

لو تفهمين أيتها الغريبة الحب في بلادي .. بلاد الحب والعطاء ، بلاد الخير والحنان .. بلاد الحب فيها عبادة .. لو تعيشين الحب الكبير والدمع الحسير والامنية المخنوقة .. لصليت مع انسانة عابدة ومعبودها غاضب او هاجر .. ولكن هيهات فحب بلادي تفهمه ابنة بلادي ..

وانت ايها الحبيب رعاك الله اينما كنت وكيفا تصرفت ..

خالدة

وتعيش شاعرتنا الاحداث الصغيرة ـ فرؤوية فتاة صغيرة تبيع الزهر للعاشقين تثيرها وتراها تتساءل مع تلك الصغيرة :

ياحيرة البائسين
الزهر للمترفين
والشوك للكادحين .

وتعود متعبة بعد تجوالها في دنيا الشقاء الى لفافتها تحرقها بنهم . وثورة وتغني لها وتشركها جراحاتها ومأساتها :

لماذا احب السيكارة
للنار تكمن في قلبها
وغرقها في الظلال الجميلة ...

وهكذا من الكلمة ، الحانية والعاطفة الغنية والفكرة الناعمة تتكون قصائد بل اغنيات شاعرتنا السيدة عزيزة هارون .

المرجان يجرح الماء

مصطفى أرناؤوط

لا تنكر أننا كنا معاً
فالشاهد بعد قطعة من البحر
لا تنكر .. أنني افكر في صدفة غريبة .
في الأعماق .. الرمل اشيائي .. والفوهة كبيرة .
حتى لكأني البحر .

* * *

لن أنام حتى تندب مع الفجر
الموج مشلول الحركة
السمك ينفث دما
المرجان يجرّح الماء ..

* * *

ارضي مخذولة ..
اوراقها مشلولة ..
روحي .. وروحي مشلولة ..
إله صغير ينمو ...
وخلف ألف جدار ...
اقفل نافذتي

مصطفى . ي . ارناؤوط